رواية

نساء وارسو

غيورغي ماركوف

ترجمة: خيري حمدان

t.me/qurssan

نساء وارسو

رواية

غيورغي ماركوف

ترجمها عن البلغارية:

خيري حمدان

نساء وارسو - رواية Жените на Варшава

تأليف: غيورغي ماركوف (Georgi Markov) Георги Марков

ترجمها عن البلغارية: خيري حمدان

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 1 - 22 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2020

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com/Adwan.Publishing.House
twitter.com/AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com/Sard.Publishing
twitter.com/SardPublishing

© Георги Марков 1968

جميع حقوق الترجمة محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي

t.me/qurssan

تنبيه من المؤلّف

الرواية التي بين أيديكم، تختلف عن الطبعة المنشورة في بلغاريا عام 1969 والنسخة الروسية عام 1970. هذه الطبعة تصدر كاملة للمرّة الأولى بمعزل عن الرقابة.

المؤلّف

لندن -1971

t.me/qurssan

مقدّمة المترجم

منعت أجهزة الرقابة نشر هذه الرواية، في صيغتها الأصلية، خلال عام 1969 في بلغاريا، وصدرت كاملةً بعد هرب الأديب غيورغي ماركوف إلى بريطانيا، بعيداً عن النظام الاشتراكي وأجهزته القمعية في سبعينيات القرن الماضي. يصاب القارئ بالدهشة حين يقرأ رواية «نساء وارسو» ويتساءل عن أسباب حظرها، على الرغم من أنّها تتناول شأناً إنسانياً وقضايا تبدو للوهلة الأولى تقليدية.

يتقاسم أحداث الرواية شخصيّتان رئيستان تمثّلان عالمَين مختلفَين: الراعي العجوز «يوردو» هو الشخصية المثالية التي تقطن تلّ الشيطان وتدرك خباياه وأسراره. يوردو راعٍ وثنيّ يؤمن بالشمس والنار ولا يقبل منافساً له في التلّ. يلتقي لاحقاً مع رئيس بعثة جيولوجية أنهى دراسته العليا في العاصمة البولندية وارسو، وحضر ليُجري مسحاً جيولوجياً للتلّ.

هكذا التقى الرجلان، العجوز يوردو الذي اجتذب الجيولوجيّ الشاب بافِل، بحكمته وتعلّقه بماعزه والتيوس التي يمتلكها.

أفاد العجوز في إحدى الأمسيات بأنّه امتلك تيساً فحلاً قويّاً للغاية، وكان قادراً على جرّ عربة وحده. التيس فيرتشو حمى قطيعه من الماعز، ولم يتجرّأ ذئب على الاقتراب من الإقليم، لكنّه غريب الأطوار ويكره كلّ شيء حتى نفسه، لذا قرّر التيس الانتحار!

طلب العجوز من بافِل مغادرة التلّ خلال شهر، قبل أن ينتحر هو الآخر على فرع شجرة البلّوط التي تعدّ أهمّ معالم تلّ الشيطان. هكذا تبدأ الحكاية ويعلن كلاهما تحدّياً مفتوحاً. يؤكّد الجيولوجيّ الشاب بافِل أنّ فكرة الانتحار غير واردة لديه، وأنّه قادر على إنجاح البعثة التاسعة بعد فشل البعثات السابقة كافّةً.

الجزء الثاني من الرواية رهن بافِل بامتياز، يتناول فيه حكاياته العاطفية في وارسو. فجأة يجد العجوز يوردو نفسه أمام عالم

t.me/qurssan

جديد لم يسمع به يوماً، هو الذي يكره المدينة يشتعل قلبه حبّاً بالراهبة ماريا، آخر عشيقات الشاب بافِل.

الراعي يوردو يمثّل النمط الاشتراكي، نال كثيراً من الأوسمة والشهادات التقديرية كأنموذج للمواطن المثالي، لكن ما معنى هذه الأوسمة في تلّ مهجور؟! علّقها الراعي على جدران كوخٍ يكاد ينهار وسط العدم. وبالمقابل فإنّ الشاب بافِل القادم من وارسو يحمل في جعبته قصص الغرام وتحرّر النساء من أيّ قيودٍ وقيم ومبادئ، كأنّ عدم الارتباط واقعاً وليس هدفاً، يستحيل تطبيقه في العالم الاشتراكي المنغلق على نفسه آنذاك.

تذكّرنا هذه الرواية بصورة غير مباشرة بقصص ألف ليلة وليلة، فالحياة رهن القصّة غير المنتهية ذات النهاية المفتوحة، بانتظار الليلة التالية، وهكذا حتى يستسلم أحد البطلين، القاصّ العجوز والقاصّ الشاب. عالم العجوز الغارق بالغرائبية أم عالم الشاب المليء بالحيوية والأمل والتحرّر؟

لكلّ هذا حُظرت هذه الرواية وجُمعت من الأسواق بعد صدورها للمرّة الأولى بفترة قصيرة، بعد أن شعرت أجهزة الرقابة بأنّ الرواية ليست بريئة، وأنّ ماركوف قد تمكّن من تمرير أفكاره الليبرالية الغربية في متنها.

يصعب الحكم على هذا العمل الأدبي المميّز من بعدٍ زمنيّ يمتد لنحو نصف قرنٍ من الزمان، لكنّ العمل الإبداعي قادرٌ على البقاء، وتبقى مهمّة القارئ مرتبطة بفهم البعد التاريخي والإيديولوجي الذي واكب كتابته.

أما الأديب «ماركوف» فقد لاحقته لعنة السلطة والاستخبارات الشعبية البلغارية حتى لندن، فقُتل بوخزة من رأس مظلّة مسمّم عام 1979 هناك.

حملت كتابات «ماركوف» حكم الموت على كاتبها، فغاب الأديب وبقيت كتبه، ومنها «نساء وارسو» التي نقدّمها للقارئ مترجمةً للغة العربيّة لأول مرة.

t.me/qurssan

نساء وارسو

لم أقابلهما أبداً، وتكلّلت بالفشل كلّ محاولاتي لاستحضار وجهيهما الواحد إلى جانب الآخر، وصوتيهما ومشاعرهما وأفكارهما، للتوصّل إلى الدوافع الحقيقية لما حدث هناك، مع أنّ مخيّلتي قد اعتادت أن تعيد بناء هيكلة الأشياء اعتماداً على مقاربات عديدة أخرى. لذا يبدو لقاؤهما ضرباً من الخيال، كأنّ تفاصيل الأحداث في تلك البدايات قد صُمّمت بتناسقٍ مسبق لبلوغ هذه النهاية بالتحديد.

أذهلتني هذه الحكاية وتعذّر عليّ استيعابها بوعي ووضوح، وقد قوّضت أديم الأرض تحت قدميّ، فوجدت نفسي معلّقاً في فضاءٍ خالٍ من الجاذبية. لعلّ ذلك يترتّب على حقيقة أنّ هذه الإمكانية قابلة للتفسير، حين أشعر وأؤمن كذلك بوجود برهان واحد لا غير يوجد في الأنحاء من حولنا، فوق القمر أو خلف النجوم، حيث المبادئ وتوافيق القدر كيانٌ واحد... سرّ.

يمكن لهذه الحكاية عبر نقلها على لساني أن تبدو مُحرّفة، غير سويّة، في الوقت الذي تتحرّى فيه، بما لا يقبل الشكّ، المصداقية وقابلية حدوثها في أيّ وقتٍ أو مكان. سأبذل جهدي لنقلها بدقّة هكذا كما سمعتها. إضافة إلى كلّ البيانات التي تمكّنت من الحصول عليها في ما بعد. كما سأحاول جاهداً تجنّب الخلط ما بين الوقائع ووجهة نظري الذاتية التي كوّنتها تجاه هذه الرواية، كما سأشير إلى المواضع التي تدخّلت فيها مخيّلتي لمتابعة العلاقة بين المجاهيل.

اسمه بافِل، وكلّ الذين عرفوه وقابلوه يرسمون صورة باهتة لمعالم هذه الشخصية الجدلية. هو رجلٌ طويل يمتلك جسداً متناسقاً، ووسيم نسبيّاً. ويؤكّدون أنّهم ليسوا على ثقة من حقيقة وسامته، لكنّه مع مرور الوقت أثبت حضوره وبان للملأ رجولياً وبهيّ المطلع. تتناول النساء مظهره الخارجيّ بدقّة أكثر. بعضهنّ على قناعة من عدم لباقته، بل وقبحه، أخريات يرين عكس ذلك تماماً وهنّ على قناعة من رجولته المطلقة. أنا على قناعة من أنّه

t.me/qurssan

رجلٌ جذّاب، لكنّه عاجزٌ عن لفت الأنظار من الوهلة الأولى، وكما يقولون: يتوه مبدئياً في الصورة العامّة.

عيناه غامقتا اللون، لكنّي لا أجزم بأنّهما سوداوان في أيّ حالٍ من الأحوال. ربّما تلوّنتا ببعض الأصباغ الغامقة غير المحدّدة مطعّمة بخضرة أو زرقة، وتبدوان في الوقت ذاته قادرتَين على تغيير صبغتهما، مُغريتَين بقدرةٍ على التعبير المفرط والانعكاس الباهت. عينان تثيران المخيّلة وتكدّران مخيّلة الآخرين. أصدقاء بافِل يؤكّدون أنّ عينيه دوماً ضاحكتان، وأنّ الرجلَ يتعامل مع العالم بمرحٍ وبلامبالاة فائضة. أعتقد أنّ الأمر مختلفٌ بعض الشيء، وأنّ كثيرين مأخوذون بابتسامته الخلّابة الساكنة وتقاسيم وجهه الموسوم بجذلٍ حازم.

يؤكّد كلّ معارفه أنّ صوته فذّ ورجوليّ عميق «Bas Baritone» وآسر. ويمكن لأيّ شخصٍ أن يجالسه ويستمع لحديثه لساعاتٍ طويلة تحت أيّ عنوان، فضلاً عن شهرته كأفضل حكواتي في الأنحاء. بعض قصصه نالت شهرة واسعة في أمسيات وارسو ولياليها، وقد أعاد سرد مغامراته مراراً حتى أدرك مستمعوه ساعات الصباح الباكر. تبدأ حكاياته بطريقة تلقائية بسيطة للغاية، كشرح قضية ما خالية من أيّ مغزىً أو معنى. يتحدّث بتؤدة وبديهية من دون تركيز، ويطبع على وجهه ابتسامة دائمة، وكلامه لا يخلو من بعض السخرية الذاتية الحذرة. لم يشكّك أحدٌ بصدق ما يقصّه، ونالت صراحتُه إعجابهم وثقتهم. من الصعب بالطبع تفسير هذه الوضعية ذات التأثير النفسيّ الكبير. كلّ واحدٍ منّا يعرف كثيراً من الحكواتيين، لكن حين يحاول أن يقلّد رواياتهم يُفاجأ بأنّ ما أعاد سرده مجرّد تزّهات وكلام فارغ خالٍ من الإثارة.

عندما أحاولُ تحليل رغبة بافِل في القصّ وسرد بعض ما عايشه ورآه، أجد أنّ الأمور ليست بهذه البراءة، ولا أظنّه يسعى فقط لإشباع فضول أصدقائه ومريديه. أدركت أنّ كلّ القصّاصين المحترفين يمتلكون حاجةً ذاتيّة ملحّة لمواصلة السرد، بغضّ النظر عن المستمع أحياناً. وحين يسردون حكاياتهم يستمعون

t.me/qurssan

لأنفسهم بنشوةٍ غامرة.

تجدر الإشارة إلى أنّ بافِل، خلال سرده للقصص والوقائع، لا يذكر تحديداً أموراً خاصّة متعلّقة بشخصه، كأنّه ليس البطل الرئيس في الرواية التي عايشها، بل مجرّد شاهد على الحدث. لذا يتعذّر علينا أن نوجّه إليه أصابع الاتهام بالتورّط في محاولات تلميع الذات وتقديم صورة جذّابة لشخصه. أقام بافِل في وارسو ستّ سنوات، حيث أنهى دراسته العليا في معهد الهندسة الجيولوجية وعلوم طبقات الأرض. أنا على قناعة تامّة بأنّ العاصمة وارسو لم تلعب دوراً هاماً في هذه الحكايات، وكان من الممكن أن يُستعاض عنها بمدينة لندن أو طوكيو أو مدريد أو أيّ مكانٍ آخر في هذه الدنيا. زملاؤه أقرّوا بتفوّقه كطالب، لكنّه لم يُبدِ مهاراتٍ وإمكانيّات خاصّة خلال مرحلة دراسته، وقد ساعدته طبيعته المتنوّرة المثقّفة على اجتياز امتحاناته بيُسر. من الواضح كذلك عدم امتلاكه طموحاً كبيراً لتطوير نفسه في مجال تخصّصه المهنيّ. أعتقد أنّه أخذ يشعر بالسأم من الأسرار الكامنة في طبقات الأرض، بعد مضيّ فترة قصيرة على بدء دراسته؛ وأنّ جلّ انتباهه قد تركّز لاحقاً في مجال نظريات أصل نشوء طبقة الأرض الفوقيّة، وبصورة عامّة في الفكرة العميقة اللامتناهية المتعلّقة بدور الإنسان في الفضاء الشاسع. لكنّه على أيّ حال لم يخضع للانبهار البدائيّ باعتباره كائناً يمتلك إحدى نهايات اللامتناهيات الكونيّة. وبعد التيه القصير الأمد الذي تملّكه في نشأة المجرّات ومصائرها، سرعان ما عاد إلى شوارع وارسو المرصوفة ببلاطٍ أصفرٍ لامع. أنا على ثقة من أنّه لم يعصر دماغه لتبيان حجم العلاقة السقيمة للإنسان مع اللامتناهيات وقيمتها. ولا أظنّه قد أخذ بالحسبان البعد المخيف للقنبلة الهيدروجينية والسرطان كما هو الحال لدى الآخرين، بل كان شاباً يرفل بصحة جيّدة.

لم يكن حضوره في صالات المحاضرات منتظماً، وانقطع بصورة ملحوظة عن متابعتها قبل انتهاء المرحلة الدراسية، ومع هذا فقد كان طاقم المعيدين والأساتذة يحابونه، ولم يثقلوا عليه

t.me/qurssan

بالتفاصيل الجانبية المصاحبة لموادّهم العلمية. في وقتٍ من الأوقات حاول دراسة اللغات الأجنبية، لكنّه سرعان ما توقّف عن ذلك، ولم يكن من المتوقّع أن يحذو سلوكاً مغايراً.

في تلك السنوات شُغف بافِل بالآداب والفنون. لا تتوفّر لدينا قرائن تؤكّد انشغاله آنذاك بكتابة الشعر ورسم اللوحات الفنية، كما هو مألوف في المراحل الشبابية. لكنّه قرأ الكثير في بداية تعامله مع عالم الإبداع. يبدو أنّ تعلّقه بالأدب ارتبط بالملل والضجر الذي واكب دراسته لعلوم الجيولوجيا. كان يفضّل المؤلّفات المرحة الحيوية كالروايات ذات الحبكة الجذّابة السلسة؛ وكان يصعب عليه كذلك قراءة المؤلّفات الفلسفية المشبعة بالتحليل والعبر، والأدب السوداويّ الكئيب الذي ملأ مختلف المكتبات المعاصرة. رفضه لقراءة المؤلّفات السادية التي فرضت نفسها على الذوق العام، ولفهمها، أدّى إلى وسمه بين أصدقائه ومعارفه بشخصٍ سطحيّ. هنا علينا أن نوضّح أنّ قراره تعسّفيّ وغير متتابع إطلاقاً بشأن فهم هذه المؤلّفات واستيعابها. فقد أقرّ بصورة مفاجئة تنكّره للأفكار التي كان قد أعلن عن إعجابه بها، وتبنّى مواقف جديدة مغايرة كان قد رفضها سابقاً. مرحلة تحرّره وتنقّله بيُسرٍ من موقف إلى آخر وتبنّيه قرارين متناقضين، في الوقتِ نفسه، كلّ ذلك أدّى إلى اعتباره من قبل كثيرين شخصيةً مزاجيّة ضحلة التفكير. لكن التراوح في المواقف كان يحدث بهدوء بعيداً عن العصبية أو التهويل خلال عملية الدفاع عن أفكاره أو مهاجمة خصومه، فقد كان في منتهى الوضوح ويبدي متعة كبيرة في إبداء توجّهاته الفكريّة، كأنّ مسألة الأخذ برأي أو فكرة وموقف ما ثمّ التخلّي عنه بعد حين مصدرٌ للغبطة والابتهاج. أعتقد أنّ حالة عدم الاستقرار هذه ضرورة إنسانيّة اعتياديّة للتنويع والتعبير عن الحريّة. من الواضح كذلك أنّ اللوحات والصور الأدبية والقضايا الجدلية المطروحة لم تخلق لديه أيّ أوهام، كما هو الحال مع أصحاب الوعي البدائيّ، ولم تتحوّل هذه المؤلفات عبئاً على حياته المستقبلية لفرض طموح غريب ومحاكاة مبادئ أجنبية.

في وارسو أيضاً التحق بافِل بمركز للتدريب على فنون الملاكمة،

t.me/qurssan

وحقّق تقدّماً ملحوظاً في نزال القبضات المحكمة، لكن حين أدرك المدرّبون أنّ بافِل قد أصبح على استعداد لخوض أولى مبارياته الكبيرة معلّقين عليه الكثير من الآمال، اختفى الرجل بصورة مفاجئة ولم تلمس قدمُه حلبة الملاكمة ثانية. يبدو أنّ حقيقة تجاهل آمال الآخرين هي إحدى مواصفاته. كثيرون يؤكّدون كذلك أنّ هذا السلوك غير مسؤول، ولست بصدد الدفاع عنه أو دحض هذه الاتهامات. أرى ضرورة البحث عن جذور هذا السلوك في أولى مراحل حياته، ورغبته الفطرية بمشاهدة الكثير من الأمور الممتعة المتنوّعة ومعايشتها في الوقت نفسه، وهذا مرتبط بفضوله ومخيّلته الواسعة.

لا شكّ أنّ إرادته المتقلّبة هذه لم تترك لدى الآخرين مشاعر وإحساساً بالأمن والثقة تجاهه. لكنّي في هذا المقام سأسمح لنفسي بتأكيد أنّ خاصيّة عدم الاستقرار لديه هي ضمان لا يقبل الجدل بشأن وضوح شخصيّته.

ثمّ بدأت مرحلة الارتحال الواسع في ربوع بولندا. لكنّ المعلومات المتوفّرة عن هذا النشاط شحيحة للغاية، مجرّد مقاطع صغيرة توضّح طبيعة رحلاته التي قصّ تفاصيلها لاحقاً بطريقة جذّابة. تمكّن بافِل في أشهر معدودة تخلّلت فصلي الربيع والصيف من عبور الكثير من القرى والمدن حاملاً على ظهره حقيبة صغيرة. أمضى بعض الليالي في أمكنة لم تكن في حسبانه، وأنجز بعض المهام التي تحتاج إلى مجهود فيزيائيّ للحصول على بعض المال، وتعرّف إلى كثيرين، كما تمكّن من إقامة تلك العلاقة الغريبة مع راهبة قصّ تفاصيلها في ما بعد على مسمع الجدّ يوردو وحده.

أرى الآن بعض الوجوم وعلامات الاستغراب على وجوه الأغلبية الذين سيقولون إن هذه الحكاية لا تحتوي على أيّ ميزة عند هذا الحدّ، وبات من الواضح أنّها سطحية ومبتذلة. قد تكونون على حقّ، لكنّي أشعر بأنّي مجبَر على تسطير انطباعاتي بموضوعية ومن دون أيّ تحيّز، في ما يتعلّق بحياة بافِل قبلَ أن تطأ قدماه الصخور البيضاء في صحراء منطقة «جنديم بائير»، وتعني: تلّ

t.me/qurssan

الشيطان.

وفقاً لما ورد على ألسنة معارفه كافّةً، حقّق بافِل علاقاتٍ غرامية ناجحة مع كثيرٍ من النساء. كما تثبت الوقائع هذه الحقائق، خاصّة مغامراته الغرامية التي قصّها على مسمع الراعي العجوز لاحقاً. كان بافِل فعلاً الحبيب والعشيق المفضّل الذي تمنّته ولاحقته النساء. قد يبدو ذلك غير صحيح أخذاً بالاعتبار أنّ تقاسيم وجهه تبدو تقليدية للغاية. عدا ذلك، لم يتمتّع الرجل بمركز رفيع المستوى في المجتمع، لم يكن صاحب جاهٍ ولا مال. حتى في أوساط الرجال الأكثر وسامة وتنفّذاً كانت النساء غير نادمات، ويفضّلنه دون غيره كأنّهنّ قد أطلن البحث عن شيء ما ووجدنَه أخيراً في شخصه. كلّ هذه التبريرات غير منطقية، لأنّ النساء اللواتي تعلّقنّ به يتمتّعن بطباعٍ مختلفة، وكما سيتّضحُ لاحقاً فإنّ كلّ واحدة منهنّ قد عشقته بطريقة مختلفة ومحيّرة للغاية. أمّا بالنسبة لي فأعتقد أنّه قد تمكّن من إشباع خيالهنّ الجارف، وهو أيضاً لم يقدّم لهنّ أيّ منافع ماديّة لاجتذابهنّ، بل أشبع خيالهنّ الجارف بسلوكه الفريد.

ما أثار دهشة أصدقائه أيضاً أنّ بافِل لم يصبح دون جوان وعاشقاً ليومٍ واحد يتنقّل بين حضرة النساء، بل كان يفضّل البحث بذاته عن العلاقات والقصص العاطفية، أو كما عبّر هو بنفسه ذات مرّة: «فليَحْدُثْ خطبٌ ما!».

من الواضح أنّ الخطب الذي كان يبحث عنه الرجل لم يتحقّق مع أيّ من تلك العلاقات التي أقامها، وكما هو معروف يتعذّر على كلّ شخصٍ اختلاق قصّة حبّ عاطفية لم يعشها. لكنّ كثيرين يتحدّثون عن غراميات بافِل بإعجاب وافتتان، وآخرون يعاتبونه قائلين إنّ رومنسيّته المفرطة أدّت إلى فقدانه القدرة على التمتّع بالكثير من أسرّة النساء العابرات، وأنّ الحبّ ليس حكاية بل قطف عذوبة أكبر عدد ممكن من العشيقات.

لا شكّ أنّ حكايات الغرام هذه قد تركت ذكرى وآثاراً عميقة، لأنّ تلك النسوة ما يزلن حتى اليوم يسردن بتباهٍ بالغ تفاصيل

t.me/qurssan

علاقتهنّ مع بافِل، بمشاعر جيّاشة وحزن لا يُحسنّ إخفاءه. إحداهنّ واسمها باربرا كتبت لصديقتها تقول: «هو قادر على أن يجدّد كلّ قديم. أعرفه جيّداً وفي كلّ مرّة أقابله أشعر بأنّي ألتقي شخصاً مختلفاً!».

حين أحاول تقييم ما أعرفه عنه أجد نفسي مجبراً على تصديق كلّ الحكايات المذكورة، لأنّ تسطيرها لا يحتاج إلى جهدٍ كبير، وهذا يعني أنّه متماثل تماماً مع شخصيته، بل ينفتح بالكامل حين يجد نفسه بين أحضان عشيقاته، لذا فإنّ ما باحت به تلك السيّدات مثيرٌ للاهتمام، لرغبتهنّ الكبيرة بتفسير ما يبدو غير قابل للتفسير.

«حصلتُ منه على كلّ رغباتي. وحده القادر على استشعار احتياجاتي وفهمها، وحين غادر وانفصلنا انتابني الشكّ لفترة طويلة، لم أكن متأكّدة مما إذا كان بافِل رجلاً حقيقياً موجوداً فعلاً».

عشيقةٌ أخرى أباحت لبعض أصدقائه: «يمتلك بافِل مشاعر حسّاسة ورفيعة، وكنت أخشى عليه من فرطِ رقّته الفائضة، وهو في واقع الأمر فارسٌ نبيل توجّه مشياً على الأقدام إلى القرية».

وهنا أُقدّم مزيداً ممّا ورد في رسالة باربرا، المرأة ذات الأطوار الغريبة: «هل شاهدتم يوماً حالة من الهدوء المبتسم؟ هو ذا بافِل!».

في ظلّ هذه المواصفات الشخصية لا بدّ من تقدير الخيال النسويّ، على الرغم من ذلك يصعب تجاهل إمكانيات بافِل بحبكِ القصص الماتعة في تلك اللحظات الفريدة التي يصعب تكرارها، وتمكّنه من إعادة رسم عبارة أو إشارة جسديّة وتجسيدها.

لديّ قناعة بأنّ بافِل لم يحاول التقرّب كثيراً إلى أيّ واحدٍ من معارفه خلال سنوات دراسته الستّ، بغضّ النظر عن الأوضاع الاجتماعيّة والنفسيّة التي مرَّ بها، باستثناء الفنّان التشكيلي كوكو، أو حسب ما وصفه بافِل: «رجلٌ من دون هوية». أستنتج

t.me/qurssan

من كلّ ما سبق ذكره ومن حكايات بافِل نفسه أنّ كوكو هو نقيضه المطلق. هذا الرجل بمنزلة مادّة مستديمة التوتّر، عصبيّ وحادّ المزاج، مندفع من دون سابق إنذار ما بين وجهات متناقضة. رجلٌ يبحث بلا كللٍ عن الخلود، ويبحث بهوسٍ عن الثَّمَل والنشوة العارمة ليبلغ حدود الكآبة واليأس. كوكو كأنّه ألعاب نارية حقيقية تفيضُ بالحِكَمِ والأقوالِ المأثورة والتأمّل وتمحيص كلّ شيء. أو كما قال بافِل: «يولي كوكو علاقة ما مع أيّ شأنٍ وحالةٍ في هذه الدنيا. حين يكون في غرفتي أشعر بأنّني في حضرة مؤتمر للعباقرة!».

لا أحد يذكر أنّه قد أقام علاقات صداقة أخرى، قد يعود السبب في ذلك، على الأرجح، إلى شخصية بافِل وإلى قراراته الاعتباطية المفاجئة وإرادته الجامحة التي لم يتمكّن من كبحها وانعكست سلبياً على علاقاته الغرامية. ربّما شعر برغبة جارفة في التهرّب من تحمّل مسؤولية علاقات الصداقة التقليدية وما يترتّب عليها من أعباء.

هذا النمط من الشخصيات غير مرغوبٍ عادة، وفي أحسن الأحوال يجدها كثيرون مريبة للغاية، لكنّ الهدوء غير الاعتيادي الذي يتمتّع به بافِل وانفتاحه على المجتمع أبقيا على موقعه الأثير ما بين الكثير من معارفه وأصدقائه. حضوره في الشَّلَلِ المختلفة لم يثقل أبداً على الآخرين، فهو يحسن الجلوس بطريقة ما في الزاوية، ولا يعلن عن وجوده إلا بعد أن يبحث عنه الموجودون. إذا انهمك بفعلِ شيء ما يتفادى إحداث جلبة من حوله؛ إذا ما جلس في البار ليحتسي مشروباً لا يشعر الآخرون بحضوره من حولهم. كلّ ممارساته بديهية غير مبتذلة حتى إنّني تساءلت عما إذا كان يتعمّد هذا المسلك؟ هل هناك طريقة لإبداء الشخصية أفضل من البقاء بهدوء وسكينة وسط بحرٍ من الأرواح المتحفّزة الصاخبة؟!

غياب علاقات الصداقة الأثيرة لديه يعني كذلك انعدام الكثير من الاعترافات، تلك الحالات الصادمة التي يشعر بها الشخص المستثار برغبة أن يبوح أمام أصدقائه بأسراره الكامنة. البعض

t.me/qurssan

يشير إلى أنّ الاعتراف بمكنون الذات يعبّر عن فشل الوصوليّ الذي يولي أهميّة بالغة لمعايشاته والأحداث المختلفة في حياته. إذا كان بافِل قد اعترف ببعض أسرار حياته فهذا أمرٌ يحمل مواصفاتٍ مختلفة، وسيبقى جزءاً من الأسرار التي تمتلكها عشيقاته.

من الصعب التعرّف إلى مبادئه. فبافِل لم يفصحْ في أيّ مجلسٍ عن طموحه وما يصبو إليه، كما تحبّذ بعض الصحف الوطنية طرح هذا النمط من الأسئلة، ما معنى الحياة؟ من المتوقّع وبلا شكّ أنّ أفكاراً وتساؤلات مشابهة قد خطرت ببالِ بافِل، لكن من الواضح أنّه لم يحاول الإجابة عن ذلك، لأنّه وفي اللحظة التالية كان سيصيح بكوكو قائلاً: «دعنا نذهب لنشتري قارورة، أشعر برغبة في احتساء الكحول!».

لو حاول هو مرّة واحدة فهم أسباب بقائه على قيد الحياة والطموحات التي يصبو لتحقيقها، لكانت مهمّتي الإبداعية أسهل بكثير، لكن في هذه الحالة لن يتوفّر لديّ ما أقصّه عليكم.

كما لا تتوفّر أيّ معلومات عمّا يتعلّق بمشاريعه المستقبلية. أعرف الكثيرين الذين خطّطوا جيّداً للسنوات المقبلة من حياتهم، هذا يعني التخطيط الذاتي وبضمن ذلك: سنة التخرّج، توقيت التوظيف وماهية الأعمال والوظائف التي سيشغلونها، توقيت شراء المنازل والشقق وتحديد الأحياء السكنية المفضّلة، عدد الأطفال وسنوات الولادة، كيفية دفنهم بعد مفارقة الحياة، وفي أيّ مكان. هناك بالطبع خطط نبيلة وإيجابية مثل تأليف كتاب عبقري أو تحقيق اختراع ما. هل حقاً يمكن للخطط هذه أن تخلق الطموح؟ هذا ليس مهمّاً على أيّ حال، فالاحتمالات جميعها تقود الطاقة البشرية تجاه الهدف في نهاية المطاف.

«أنا لا أحبّ إرهاق نفسي وتكليفها فوق طاقتها»، قال بافِل حين عُيّنَ في وظيفته، وأنا على ثقة من أنّه قال ذلك بتنبّؤ مرح متّخذاً وضعية مريحة تتوافق مع هذا الطرح.

في الوقت الذي أحاول فيه بناء تصوّر ما عن شخصيته، أجد أنّه

t.me/qurssan

ينتمي إلى تلك الفئة من البشر التي تنزرع كأوتاد في الطبيعة، بغضّ النظر عن المكان والكيفية والفترة الزمنية المحدّدة، على الأرجح مع حلول موسم تفتّح الربيع.

في السنة الثانية من دراسته الجامعية تراجع إقباله على حضور المحاضرات، وأخذ يغيب مطوّلاً عن أنظار زملائه من دون أن يعرف أحدٌ طبيعة انشغاله. كانوا يشاهدونه بين الوقت والآخر برفقة كوكو أو مع إحدى الفتيات، وغالباً ما كان يجلس وحيداً في المقاهي والبارات يحتسي الكونياك بسكينة. وفي الأمسيات الشتوية الباردة غالباً ما يصادفونه في صالات الرقص، فهو يحبّ أن يرقص كثيراً، وأحياناً لا يغادر حلبة الرقص طوال الليل. وفي مرّاتٍ أخرى صادف أن رأوه يجلس بالقرب من صندوق الموسيقا ليستمع إلى منوّعاتٍ مختلفة.

لم تُعِقه كلّ هذه الاهتمامات من تحصيل الشهادة الجامعية العليا. دعاه رئيس القسم للبقاء في الجامعة والعمل بمنصب مساعد محاضر. لا أحد يعرف الأسباب التي حثّت بافِل على رفض هذه الدعوة، وفجأةً انضمّ إلى بعثة استكشافية جيولوجية لسلسلة جبال تاترا حيث أمضى طوال فصل الربيع. عاد من هناك بمعنوياتٍ عالية ومزاجٍ رائق للغاية، ثمّ حزم أمتعته وعاد إلى بلغاريا، وكان قد بلغ في تلك الأثناء الثامنة والعشرين من العمر.

أمضى بافِل في العاصمة صوفيا ثلاثة أيام فقط. استقبله والده وأمّه بفرحٍ غامر، وأقاموا حفلةً صاخبة على شرفه راقص خلالها بنات عمّه، مازح أقاربه وترك لديهم مشاعر الرضا والاستحسان. هذه الوضعية ليست غريبة عنه ومطابقة لطبائعه. كان يشعر بالارتياح لحضوره بين شلل وجماعات عديدة في ظلّ ظروفٍ مختلفة. يصعب التأكيد على أنّه قد تأقلم جيّداً مع الوسط المحيط، لأنّ سلوكه لم يتغيّر وبقي على حاله، في الوقت نفسه لم تتغيّر طبيعة علاقة هذا الوسط به.

حاولتُ ولأكثر من مرّة أن أعرف حقيقة مشاعره إثر عودته مباشرة إلى الوطن، حسبته يسير في أماكن مألوفة وأخرى

t.me/qurssan

منسيّة، وأنّه قد ابتهج حين تذكّر بعض الأحداث القديمة والشخصيات التي كانت تربطه بهم علاقة ما في السابق. ظننتُ أنّه قد عايش هذه الذكريات بمزيج من الحزن والفرح والحنين. لكن أيّاً من ذلك لم يحدث، أنا الآن على ثقة من عبوره هذه المدينة كما الغرباء الذين يجتازون المدن الأجنبية على عجل.

«صديقي العزيز، أنا هو أنا كما تعرفني. هناك ضرورة للسفر والعودة، فالحركة والتنقّل هي أساس الحياة. حاولتُ ابنة عمّي أن تحتلّ مكانتك بالأمسِ مردّدة على مسامعنا إحدى عباراتك المشهودة: فكرة **اللاعودة** تتسبّب بهدم استقرارها النفسي. قلت لها إنّ من العبث أن تولي فكرة اللاعودة هذا الاهتمام، وكنتَ أنت المثال الذي قدّمته لدعم نظريتي، قلتُ لها إنّ الإنسان سيصاب بمضاعفات البرد إذا أطال الوقوف على الشرفة لمراقبة مسيرة اللاعودة».

الحقيقة أنّ أمّه قد شعرت بالقلق، فقد بدا لها ابنها غريباً بعض الشيء عن البيئة المحلية، هي لا تدّعي بأنّه عاجز عن إيجاد مكانه في العائلة، لكن حضوره ليس حميماً، وغريبٌ بشكلٍ ما، وأعربت عن عدم قدرتها على تفسير مشاعرها. توقّعت أن يبوح ابنها بتوقّعاته وآماله، لكن كيف له أن يعترف لها بشيء غير حقيقي. أقلقها كذلك قيامه بنشاطات مختلفة عديدة من دون أن يهتمّ بأيّ مشاريع مستقبلية، ومع هذا تركت ابتسامته والثقة المألوفة في مقاطع وجهه الهدوء والسكينة المرجوّة.

حسب القوانين المعتمدة يجب على خرّيج الجيولوجيا الحديث الالتحاق بمكان العمل الذي تحدّده المؤسسات الحكومية المعنية. أمّا الوالدان المسنّان فكانا يرغبان ببقاء ابنهما في كنفهما. أخبره والده بأنّه على معرفة مع أحد الوزراء القادر على إصدار قرار يتيح له البقاء والعمل في صوفيا.

«دعك من ذلك يا أبي، دعِ الأمور تسير على علّاتها!»، ردّ بافِل رافضاً عرض وساطة الوزير.

حاول أبوه على الفور إقناعه بأهمية بقاء الموظف في مكان دافئ

t.me/qurssan

خلف مكتب بدلاً من التيه والبحث عن المجهول في التلال الوعرة. وأنّ الرجل الذكيّ لا يتخلّى عن مسبّبات الراحة لمنافس آخر.

عانى بافِل من إذلالٍ خلال فترة بحث الوالد عن الطرق المؤدّية إلى المتنفّذين في السلطة لإبقائه في العاصمة صوفيا، ما أدّى لتمرّد روحه وتوجّهه لتحليل ذاتي لهذه المعاناة.

أنا على ثقة تامّة من أنّ بافِل بقي غريباً بالكامل عن هذا النمط من المسالك. ضحك من محاولات والده. ربّت على ظهره وانطلق إلى المكان المحدّد لممارسة وظيفته على الفور، لإثبات حضوره والتزامه الجادّ.

أعتقدُ كذلك بأنّه قد رفض وساطة الوزير، ليس لأسباب وطنية أو لأسباب متعلّقة بصالح المجتمع العام وما شابه، بل كما جاء على لسانه بعد نصف ساعة فقط: «لا أحبّ تحميل نفسي أكثر من طاقتها!».

فرح المسؤولون في دائرة التوظيف لأنّ هذا النمط من المواطنين نادر للغاية، ولم يكن هناك بدٌّ من تهنئته والترحيب به. وسامة بافِل الظاهرة أعجبت المسؤول المباشر في الدائرة إلى حدّ كبير، وأخبره بهذه المناسبة: «أيعني هذا يا أخي أنّك على استعداد للذهاب إلى أيّ مكانٍ نحدّده لك؟».

«نعم، هذا صحيح»، أجاب بافِل.

«إذا وافقت أنتَ على الذهاب إلى هناك، وبقيت في مكان الوظيفة لمدّة عام كامل، وأنجزت كلّ ما هو مطلوب منك، فإنّي أعد بنقلك رسمياً إلى صوفيا في العام المقبل».

«حسناً»، أردف بافِل.

«لكن عليك أن تعلم بأنّ المهمّة ليست سهلة أبداً!»، أنهى المدير حديثه.

هذا ما حدث في واقع الأمر، وفي اليوم التالي وجد بافِل نفسه

t.me/qurssan

بالقرب من ساحل البحر الأسود مع بداية فصل الصيف. الشوارع في المدينة وعلى الساحل مكتظّة بالبشر، السيّاح يرتدون أردية وأطقم الصيف والبحر. كان يحمل بين يديه مضرباً كلاعبي الغولف ومطرقة اختصاصيّي الأنشطة الجيولوجية، توجّه بافِل على الفور إلى قاعدة البعثة. استقبلوه هناك بغرابة وحيرة بالغة، كما يُفاجأ أهالي القرى والمناطق النائية بحضور أبناء المدينة للعمل بينهم.

«لا بدّ أنّهم قد قرّروا معاقبتك!».

«لماذا؟»، أجاب بافِل.

نظر إليه الآخر بريبة وتمتم: «سترى يا صاحبي، سترى بأمّ عينك!».

في تلك اللحظة سمع للمرّة الأولى مسمّى «جنديم بائير» وتعني تلّ الشيطان. يُشار إلى هذه المنطقة في الوثائق الرسمية بمسمّى «كوستيتسا» وتعني قطعة العظم الصلبة. هذا هو الاسم الذي أطلقه عليها أحد خبراء العلوم الجيولوجية، لوفرة الصخور البيضاء المنتشرة في رقعة واسعة كأنّها عظام. لكنّ المنطقة معروفة بين أهالي المنطقة بمسمّى تلّ الشيطان. المهمّة التي كان على الخبير الشاب أن يقوم بها برفقة الطاقم المصاحب هي وضع خارطة جيولوجية، أو كما يفيد علماء الجيولوجيا: وضع مخطّط وافٍ للطبقات الجيولوجية هناك.

لم يبدُ الارتياح على وجوه الموجودين في القاعدة الجيولوجية لظهور بافِل بينهم، لأنّه من الصعب تشكيل بعثة للذهاب إلى تلّ الشيطان حسب توصيات الوزارة.

«أتعرف أيّها الشاب أنّ مجموعتك ستكون التاسعة على التوالي؟!»، صاح أحدهم.

«وماذا يعني هذا؟».

«نقوم بتجميع أعضاء البعثة وما إن تمرّ أيام معدودة حتى يهرب

t.me/qurssan

جميع أفرادها. مقدّرات مالية تضيع في مهبّ الريح».

لم يطرح بافِل أسئلة بشأن فشل المجموعات الثماني التي سبقته، وسرعان ما أوضحوا له: «في تلك المنطقة يلعب ويتقافز الشيطان على حبالٍ طويلة ممتدّة».

حاولوا بطريقة لبقة أن يوحوا له بأنّ تنفيذ هذه المهمة صعبٌ وعبثيّ وأن عليه القبول بالانتقال إلى منطقة أخرى، لم تكن هناك حاجة أو معنىً لتشكيل بعثة جيولوجية ستنحلّ في أفضل الأحوال خلال أسبوعٍ واحد. عرضوا عليه، إذا كان يشعر بالتعب والإرهاق، المكوث في فندق ساحلي ليستجمّ فوق رمال الشاطئ المشمسة، أغروه كذلك بأنّ مخصّصاته وراتبه ستُدفع له حسب الأصول بانتظار تكليفه بمهمّة أخرى.

جلس بافِل واستمع إليهم ببالغ الصبر والاهتمام ولفافة التبغ مشتعلة بين أصابعه. قد تكون تقاطيع وجهه هي التي حثّتهم على الاستمرار بإقناعه، لكن ما إن أنهى حرق اللفافة حتى وقف على قدميه وصاح: «ما دام لا يوجد بينكم من يرغب بالذهاب إلى هناك سأتوجّه وحدي، على أن تُلحقوا الأعضاء الآخرين عندما تتمكّنون من العثور عليهم. ناوِلوني خارطة المكان قبل أن أنطلق!».

أتخيّله ينطق بهذه الكلمات بهدوء، بلا عجرفة ولا استعلاء أو تعصّب شبابيّ. كانت مسألة توجّهه إلى تلّ الشيطان محسومة ولا تقبل الجدل.

باشر المنظّمون في القاعدة الجيولوجية بالبحث عن أشخاص يقبلون الالتحاق بالبعثة التاسعة للمنطقة. لكن لم يُبدِ أيٌّ من الموظفين الموجودين في القاعدة أيّ رغبة في الانضمام لهذه البعثة، وكان عليهم البحث عن أشخاص آخرين خارج نطاق القاعدة. نشروا الخبر في المدينة لكنّ أحداً لم يقبل هذا العرض، جميع الذين شاركوا في البعثات السابقة رفضوا حتى مجرّد التفكير بذلك. عدا هذا وذاك، خلق هؤلاء الأشخاص أسطورة عن تلّ الشيطان تعجّ بالرعب والغرابة. بعد مرور بضعة أيام من دون

t.me/qurssan

أن تكلّل جهودهم بالنجاح. عرض منظّمو القاعدة الجيولوجية أجراً سخياً بصورة عاجلة لكلّ من يوافق على الانضمام إلى قوام البعثة، بل وتوجّهوا بأنفسهم على امتداد الساحل للبحث عن المتسكّعين والغجر لإغرائهم بالقبول.

بعد ممارسة الكثير من التهديد والترغيب، تمكّن طاقم القاعدة من تنظيم البعثة التاسعة بعد أسبوع من حضور بافِل، لمواصلة الأبحاث والمسح الجيولوجي لإقليم تلّ الشيطان. البعثة مكوّنة من سبعة أشخاصٍ، معظمهم لا يملك أدنى فكرة عن هذه المهمّة. ما يعني كذلك أنّهم لا يمتلكون الحدّ الأدنى من الكفاءات المهنية المطلوبة، ولم يرَوا طوال حياتهم أداة جيولوجية على الإطلاق. صادقوا على عقود للعمل لمدّة ستة أشهر، وحصلوا على بعض المال مقدّماً إضافة إلى ملابس عمل خاصّة، وأعتقد بأنّهم وجدوا أنفسهم في وضعية مضحكة في عمق الغور الهائل للقاعدة.

لا أدري كيف تمّت عملية التعارف في ما بينهم، وماهية أحاديثهم في بداية المطاف، وهل ترك لديهم بافِل انطباعاً ما! لكن من المؤكّد أنّ تضاريس وجه رئيس البعثة لم تكن تعني لهذا النمط من المواطنين شيئاً محدّداً. هو على أيّ حال رئيس البعثة وهذا كافٍ بالنسبة لمفاهيمهم، وعلى الأرجح لم يُعِرهم بافِل نظرة واحدة من طرفه، وهم أيضاً لم يتبادلوا نظرات مشتركة في ما بينهم كأنّ الأمر لا يعنيهم.

أعضاء المجموعة متنوّعون للغاية، فقد ضمّت الغجري الذي يحمل اسم أسِن البلغاري، واضطرّت القاعدة إلى الكذب على أسِن حين أخبروه بأنّه سيشارك في عملية ترميم معمل للأجبان في المنطقة. «سنأكل الكثير من الجبن في أسوأ الأحوال» علّق الغجري في بداية البعثة. وتشمل كذلك التركي حسين الذي وافق لإعالة أولاده العشرة، خاصّة أنّ العقد ينصّ على تقديم معونات مالية للأطفال تبلغ قرابة ثلاثة رواتب رسمية، وحمّالَين طُردا من وظيفتهما في المرفأ لتورّطهما في أعمال نصب واحتيال، وهما ريزو وسلافتشو، تشجّعا للمشاركة في البعثة ليكسبا العرض المالي المغرى. وضمّت بانايوت، وهو شخصية مثيرة للجدل،

t.me/qurssan

أرسله البوليس الوطني للقيام بأعمال مفيدة للمجتمع كعقابٍ له، وكان قد هدّد قبل الانطلاق في قوام هذه البعثة بقتل صاحبة البيت الذي أقام فيه، لأنّها كتبت بحقّه تقريراً أمنياً تفضح فيه ممارساته المعيبة. الرجل الكفؤ الوحيد الذي وافق على المشاركة في هذه البعثة هو التقنيّ الشاب كيرتشو الذي يعمل في القاعدة، ولم يبلغ من العمر آنذاك سوى تسع عشرة سنة، وتقرّر تسلّمه منصب مساعد رئيس البعثة بافِل.

في البداية امتدت الطريق بموازاة ساحل البحر، الصباح مشمس، وسارت الحافلة بجوار الكثير من السيّاح العراة الجذلين. شقّ القاربُ مياه البحر طوال الوقت بموازاة الحافلة كالقدر يحمل على متنه مجموعة من الشابات شبه عاريات يرقصن بصخب. اقترب خطّ مسير الحافلة لأكثر من مرّة إلى أقلّ من عشرين متراً مع حافّة الشاطئ، عندئذٍ تبادل ركّاب الحافلة والقارب النظرات. صاحت الفتيات بصخب ولوّحن بأيديهنّ لتحيّة الرجال المحمّلين في الحافلة المثقلة بالأدوات والأمتعة، لكنّهم صمتوا ولم يتفوّهوا بكلمة واحدة. بافِل وحده ردّ التحية ولوّح للفتيات بيده.

رفض بافِل الجلوس بجانب سائق الحافلة وفضّل البقاء بين أعضاء البعثة في الخلف. ثمّ انعطفت الحافلة بحدّة مبتعدةً عن ساحل الشاطئ، فظهرت أولى التلال التي غيّبتهم خلفها من دون عودة قريبة.

انشغل أسِن بملءِ وريقات صحفية رقيقة بالتبغ الذي حصل عليه من أعقاب السجائر واستمرّ يردّد أغنية غجريّة. حاول حسين أن يجتذب أطراف الحديث في أيّ موضوعٍ ممكن، لكن الجميع أبقوا على صمتهم المطبق. أمّا المحتالان سلافتشو وريزو فأخرجا ورق اللعب وبادرا بلعب القمار بطريقتهم الخاصّة. بانايوت حاول أن يملأ الفجوات في حذائه الصينيّ مبدياً تحدّياً واضحاً تجاه بافِل وباقي أعضاء البعثة.

«ألا تملك حذاءً آخر؟»، سأله بافِل.

«جميع أحذيتي مثقوبة، كلّ ما أملكه مثقوبٌ يا حضرة الرئاسة».

t.me/qurssan

«السبب الذي حثّنا على المشاركة في هذه المهمّة أنّنا لا نملك شيئاً بلا ثقوب»، صاح أحد لاعبَي القمار.

عندئذٍ ابتسم الغجريّ وردّد كلمات لم ينسَها بافِل أبداً: «أتعرف يا صاحبي، بِعنا أرواحَنا للشيطان والأفاعي!».

من نافل القول الإشارة إلى أنّ بافِل قد شكّك بصحّة ما تفوّه به الغجريّ بصوتٍ حزين. لكنّي على يقين من أنّه كان سيمضي في مشروعه هذا، وليس من المتوقّع أن يعدل عنه أو يغيّر من مسيرته لو عرف في تلك اللحظة أن الغجريّ محقّ في توقّعاته.

بعد ساعة من الزمن انتهت الطريق الأسفلتية المعبّدة. وأخذت الحافلة تشقّ طريقها بصعوبة بالغة في الطريق الجبليّ الوعرة. ارتفع قرصُ الشمسِ عمودياً في كبد السماء، واختلطت قطرات العرق بذرّات الغبار. توقّف الغجريّ عن الغناء، وأنهى ريزو وسلافتشو لعب الورق، وقذف بانايوت بحذائه بعيداً.

اختفت الغابات والمراعي الخضراء، وهرب النهر بعيداً عنهم، وامتدّ لون الطبيعة الخضراء تدريجياً في الأفق الشاسع، وحلّ مكانه اللون الرماديّ للتلال والمستنقعات العارية. الحافلة ترتجّ بطريقة مزعجة وغير مريحة وباتت الرحلة عبئاً لا يطاق، لكنّ الركّاب أبقوا على ولائهم وطاعتهم جالسين في الجزء الخلفيّ للحافلة. في أثناء ذلك لم يتوقّف بافِل عن التدخين متمعّناً في تضاريس المكان بفضول. ربّما استغرب أن يجد نفسه في هذا العراء المقفر بعد أن كان قبل أيام يمشي في شوارع المدينة المكتظّة.

حين وقفت الشمس عمودية فوق رؤوسهم، غادروا الحافلة وسط قرية صغيرة متوحّشة. شاهد بافِل بيوتاً كأنّها لوحات فنيّة مرسومة في أحد المنخفضات وبعض القرويين الذين يراقبونهم بفضول من ساحات منازلهم. كان عليهم السير مشياً على الأقدام، وكان بانتظارهم بضعة بغال بسروج كبيرة للغاية. نقل الرجال أمتعتهم على ظهورها، ثمّ تزوّدوا بكمية كبيرة من المياه،

t.me/qurssan

وانطلقوا قدُماً في وهج القيظ الذي لا يطاق.

ساروا ما بين التلال المتصحّرة بمحاذاة الأعشاب القصيرة وأحراج البلوط الجرباء. لم يشاهدوا من حولهم سوى نبات الأقشون الشوكي الذي لا يرتفع لما يزيد على متر ونيّف، وبعض الأعشاب المحترقة وحجارة صلداء. بعد أن عبروا آخر القرى لم يصادفوا كائناً حيّاً، وبين الحين والآخر كانوا يستمعون لأصوات أجراس المواشي. لا توجد طريق وغالباً ما كانوا يفقدون وجهتهم، لكن الرجل الذي كان يقود البغال خبير وقادر على تحديد الوجهة المطلوبة مستعيناً بموقع الشمس؛ وعلى الرغم من الأجواء المتوهّجة اللافحة إلا أنّهم ساروا طوال فترة ما بعد الظهر. تناولوا طعام الغداء واستراحوا مراراً في الظلال الشحيحة لما يكفي لمسح العرق عن جباههم. لم يتعرّضوا لأيّ أعراض طارئة، ربّما لأنّهم يكنّون في أعماقهم بعض الآمال. وحده الغجري تساءل مرّة واحدة خلال هذه المسيرة: «إلى أين نحن متوجّهون يا أبونا؟».

لم يتجرّأ أحد على الإجابة لعدم وضوح مآل المهمّة. عند الساعة الرابعة عصراً توقّفوا لنيل قسطٍ من الراحة في ظلّ غابة غريبة من الأشجار المريضة. تسبّب وباءٌ بتشويه جذور أشجار الغابة، فبدت كأنّها شخصياتٌ مصلوبة، ضحايا لسحرٍ أسود شرّير كأنّ الأشجار تمثّل ذكرى قبيحةً لكياناتها.

أخرج الرجلان القادمان من المرفأ قارورة عرق وأداروها من يدٍ إلى أخرى. شرب بافِل بكلّ سرور، الأمر الذي راق لهم، تشجّعوا وتجاذبوا أطراف الحديث.

«ماذا سنفعل إذا ما وجدنا هناك ذهباً؟!»، سأل ريزو.

«لا يوجد في هذا المربّع ذهب»، أجاب بافِل.

«حسناً، ماذا سنفعل إذا عثرنا على الذهب هناك؟»، أعقب ريزو.

«عندئذٍ سيحمل كلّ واحد منكم قدر ما يستطيع من الذهب ولينطلق أينما يشاء»، قال بانايوت.

t.me/qurssan

صادق بافِل على حديثه واحتسى ما تبقّى في القارورة. عندئذٍ اقترب منه كيرتشو وهمس له: «هذان الرجلان لن يؤدّيا أيّ عملٍ نافع يا رئيس!». لم يُجبْ ولم يعلّق على كلمات كيرتشو، وبقي يحدّق في المناظر الطبيعية من حوله. لا أدري مدى تأثير هذه المناظر على مزاجه. أعتقد أنّ هذا المنظر تحديداً قادر على قلب أيّ ذكرى ساطعة ليجعلها غير واقعية، أن يُبعد ماضي الإنسان بأكمله لمسافات شاسعة، ليبلغ نقطة اللاعودة المطلقة.

استمرّوا بالمسيرة لكنّهم ومن دون استثناء واصلوا النظر إلى الخلف لتحديد وجهة العودة، وأعتقد أنا أيضاً أنّه في مثل هذه الحالة يصبح تذكّر طريق العودة هو الهاجس الأهمّ. أدرك بانايوت ما يدور في بال الجميع وقال: «إلى الأمام أو إلى الخلف - سيّان!».

وصلوا إلى المنطقة عند الغروب قبل مغيب الشمس بقليل.

توقّف قائد القافلة وأشار بيده إلى المكان قائلاً: «هذا هو تلّ الشيطان!».

«أهذا هو إذاً؟!»، تساءل بافِل.

«هممم، إذاً هذا هو التلّ الشهير!»، ردّد بانايوت باستهزاء.

نظر الرجالُ السبعة إلى المكان وقد اعتراهم توجّسٌ وتنبّؤات مقلقة.

امتدّت على مدى البصر تلالٌ عارية مغطّاة بحجارة دقيقة بيضاء وقد تآكلت بفعل الوقت وتأثير الجير الصخري، كأنّها بقايا عظامٍ لرجال خاضوا معارك قديمة، وفي الأنحاء صخورٌ متشقّقة وأشجارٌ جافّة وأعشابٌ محروقة ساكنة. صحراء بكلّ ما تحملُ الكلمة من معنى.

شاهدوا على التلّ الواقع إلى اليسار شجرةَ بلّوط تتدلّى قمّتها تاجاً أخضرَ عملاقاً. أوراق الشجرة اليانعة هي البقعة الوحيدة المختلفة في صحراء المكان البيضاء. تبدّت لهم الشجرة في بادئ الأمر ضرباً من الخيال، لذا بقيت أنظارهم متعلّقة بها.

t.me/qurssan

عندما استمعت لهذه الحكاية شعرت ببعض النفور تجاه شجرة البلوط تلك. قلت في نفسي إن إقحام الشجرة في متن الحكاية يبدو محض حبكة أدبيّة، محاولة لإضفاء رمزية رخيصة للغاية في نسيج الحياة. ثمّ أخذت تدريجياً أتقبّل وجودها حتّى توقّفتُ عن رؤية الصحراء أمام الحضور القويّ لشجرة البلّوط. أنا على قناعة لا تقبل الجدل بأنّ هذه الشجرة تحتلّ دوراً رئيساً في حكايتنا هذه، وسيدرك الجميع هذه الحقيقة.

«لا شيء في الأنحاء باستثناء شجرة بلّوط»، سيكتب بافِل بعد حين.

«شجرةُ البلّوط أغوتنا وغرّرت بنا، شجرة البلّوط!»، صرخ بانايوت في وجهي حين سألته عن مصير البعثة.

لكن، في تلك الوهلة الأولى، تركت شجرة البلّوط انطباعاً عميقاً خارقاً للغاية لدى كلّ أعضاء البعثة. وقفوا جميعاً يراقبون الشجرة العذبة، الممثّل القويّ للحياة في تلّ الشيطان.

«لدينا بعض الظلال أيضاً»، صاح بافِل ضاحكاً.

على بعد خمسين خطوة من شجرة البلّوط شوهدت حظيرة تقليدية للمواشي مسوّرة ومظلّة تقيها من شدّة الحرّ. عندما وصلوا إلى المكان كانت الحظيرة فارغة، لكنّ القطيع على ما يبدو كان ما يزال في محيط المنطقة. لاحظوا كذلك أنّ الحيّز المرئيّ في العمق ما بين التلّتين مخضرّ. هرع الغجريّ قبل الجميع إلى البقعة الخضراء، وكان هو أوّل من اكتشف الينبوع وحوضين من الخشب امتلأا بالماء العذب الذي تجمّع بعد ذلك في حفرة ضحلة.

حسموا أمرهم على الفور وقرّروا الإقامة في التلّ المحاذي للينبوع، على الرغم من أنّ المكان المعنيّ بالتخطيط الجيولوجي يبعد نحو كيلومترين عن تلك البقعة. رفعوا الأحمال عن ظهور البغال لتعود أدراجها، وتمكّنوا خلال ساعة واحدة من شدّ حبال خيمتين، إحداهما كبيرة مجزّأة لقسمين يحتفظون فيها بفراشٍ

t.me/qurssan

لستّة أشخاص، وبكلّ المعدّات والمؤن ومعدّات الطهي لأعضاء البعثة. الخيمة الثانية سياحية صغيرة أحضرها بافِل معه من بولندا. وبدلاً من الفراش قرّر بافِل استخدام كيس نوم، وكان في حوزته أيضاً بعض الأمتعة الخاصّة ونحو عشرة كتب.

ما إن انتهوا من رفع الخيمتَين وشدّ حبالهما حتّى عاد قطيع الماشية من المرعى. انطلقت ثلاثة كلاب صيد وحماية تجاه الضيوف الغرباء، لكنّ صوت سيّدها كبح جماحها على الفور. صوت العجوز يوردو.

بودّي أن أصدّق أنّ ظهور العجوز تحقّق بصورة غامضة غير مألوفة، وأنّ الانطباع المبدئيّ الذي خلّفه قويّ لا يتكرّر وبما يليق بسيّد تلّ الشيطان. وأُقرّ أنّ الغرائبية التي لازمت العجوز يوردو هي وحدها التي ساعدتني لشرح هذه الحكاية المتأثّرة بصدى العديد من القوى الخفيّة ذات الطابع الخرافيّ الخارق. لكن المصيبة تكمن في أنّ كلّ البيانات والتفاصيل التي بلغتني تثبت عكس ذلك تماماً. فقد كان العجوز يوردو مجرّد راعٍ تقليدي لا يختلف كثيراً عن أمثاله الرعاة، الذين ما يزالون يجوبون بقطعان ماشيتهم في الجبال المجاورة.

يُقال إنه رجلٌ قصيرٌ ومكتنزٌ وقويٌّ للغاية، على الرغم من تقدّمه في العمر. تتخلّل وجهَه تجاعيدُ عميقة، ويتمتّع كذلك بلونٍ نحاسيّ قريب للحمرة المقترنة بالدماء النقية لمعظم المقرّبين من الأرض والطبيعة. أمّا عيناه فتبدوان واسعتَين ومسطّحتين، سوداوَين كعيون أهالي الجنوب، تشوبهما نظرة فضول باسمة. كأنّه على معرفة بكلّ شيء مسبقاً ولا يوجد ما يمكن أن يثير دهشته. ملابسه مَحيكة من قماش منزليّ خشن، ذات لون أرجوانيّ، ويرتدي قميصاً من دون ياقة وحزاماً من القماش. أمّا نعله فمن جلد الخنزير غير المدبوغ. وعلى الرغم من حرارة الجوّ الخانقة، أبقى يوردو على قبّعة الرعاة فوق رأسه.

هكذا شاهده جميع الرجال للمرّة الأولى يقف قبالة الخيمتين مرتكزاً على عصاه يمتصّ غليونه متفحّصاً أعضاء البعثة، الذين

t.me/qurssan

كانوا في هذه الأثناء يحومون أمامه. كتب بافِل لاحقاً يصف يوردو في أثر هذا اللقاء تحديداً: «راعٍ توراتيّ على قيد الحياة يا أخي. هل هبط من السماء ليقودنا إلى المرعى؟».

«أهلاً وسهلاً بالشباب!»، صاح العجوز مرحّباً وبقيّ يحدّق في وجوه الوافدين.

تقبّل الجيولوجيون دعوته بكلّ سرور. حضور العجوز يوردو نفحهم مزيداً من الشجاعة وسرعان ما تجاذبوا معه أطراف الحديث كأنّهم أصدقاء قدامى. لم يجد الغجريّ حرجاً فاستجدى كأس حليب لتناول إفطاره، حسين أيضاً فضّل الحديث عن قطيع يوردو من الماعز.

ثمّ أوضح لهم العجوز يوردو كيفية وضع الشباك حول الخيمتين للحيلولة دون دخول الأفاعي إليها. كما شرح لهم أفضل الطرق لحفظ مخزونهم من الطعام لكيلا يفسد من حرارة الشمس الحارقة، وشرح كيفية الحصول على ماء الينبوع والحفاظ عليه من الجفاف.

«ولكن كيف يمكن للينبوع أن يجفّ أيّها الجدّ؟»، سأل أحدهم.

«إذا غرفت من النبع ما يفوق حاجتك فإنّ الماء سيغضب»، أجاب العجوز بثقة، «لذا عليكم أن تأخذوا قدر ما يفيض من حوض الينبوع فقط».

أبدى العجوز غيرةً كبيرة تجاه ينبوع الماء، وغالباً ما كان يتفقّد الحوض مصرّاً على إبقائه ممتلئاً، ثمّ يحذّر الجيولوجيين ثانيةً من تبعات غضب الماء.

«هل ستُجرون مسحاً جيولوجياً لهذه الأرض؟»، ثمّ يجيب العجوز بنفسه قائلاً: «لا يمكن قياس مساحة هذه البقعة لأنّها مرهونة للشيطان».

انهمك الرجال بشؤون إقامتهم الجديدة حتّى أنّهم لم يعيروا كلماته أدنى اهتمام في تلك اللحظة، لكن، وبعد مضيّ بضع

t.me/qurssan

ساعات، تذكّروا كلّ كلمة تفوّه بها العجوز.

انطلق يوردو نحو قطيع ماشيته المكوّن من الوعول، ونحو عشرة رؤوس من الماعز التي كانت تنتظر صاحبها لحلبها. في تلك الأثناء تمكّنت المجموعة من إيجاد مأوىً مناسبٍ كيفما اتفق في الخيمة الكبرى. استلقوا على الفراش، وسرعان ما شعروا بالأريحية وتحسّن مزاجهم بصورة واضحة حتّى أنّهم فتحوا بعض قوارير الخمر وأخذوا يغنّون جذلين، أمّا الغجري فأخذ يقرأ أكفّ أيدي الرجال متنبّئاً بالكثير من السعادة والثراء لكلّ واحدٍ منهم. قال بافِل بهذه المناسبة: «تذكّروا كلماتي، لا يمكن أن تخلو هذه المنطقة من الثروات. ستعثرون على الكنوز أو الذهب».

كان المساء في منتهى الروعة، طغت عليه السكينة وأجواء لطيفة، وغطّى سقفَ السماءِ الكثيرُ من النجوم المتألّقة الساطعة.

ذهب بافِل إلى نبعِ الماء، فوجد الجدّ يوردو يجلس بالقرب من الحوض الخشبيّ يعبّ دخان غليونه.

«أأنتَ رئيس البعثة؟!»، سأل العجوز بلطفٍ وكياسة.

«نعم، أنا رئيس هذه المجموعة»، أجاب بافِل.

«استمع إليّ جيّداً يا بني!»، قال العجوز يوردو بصوته المتهكّم المألوف، وأضاف: «أُمهل جماعتك لمدّة سبعة أيام فقط، بعدها لن يبقى منهم أيّ واحد في التلّ. ثمّ ستهرب أنتَ من هنا ولن تعود أبداً ما دمتَ على قيد الحياة!».

«ما رأيك إذا ما قررتُ البقاء هنا؟»، سأل بافِل من دون أن يعرف السبب الذي حثّه على طرحه.

«إذا فضّلت البقاء في التلّ على أيّ حال! سأمهلك لمدّة شهرٍ واحد قبل أن تشنق نفسك هناك على غصن شجرة البلّوط»، أشار العجوز بيده إلى الجهة المقابلة القابعة في شبه العتمة.

اكتفى بافِل بالابتسام، ثمّ وقف العجوز يوردو ومضى نحو قطيعه من الماعز كأنّه قد باح بكلّ ما يجول في خاطره.

t.me/qurssan

«لم أسأله عن الأسباب التي ستدفعني لشنق نفسي، ولم أسأله عن دوافع هرب أعضاء بعثتي! أردت أن أسأله عن الأسباب التي اضطرّته لأن يخبرني بكلّ هذه التنبّؤات، لكن وفي تلك اللحظة تهيّأ لي أنّه محقّ ويدرك جيّداً كنه ما يقول»، أفاد بافِل في ما بعد.

ردّد بافِل لاحقاً الكلمات التي تفوّه بها العجوز يوردو، وهذا دليلٌ على أنّه ترك لديه انطباعاً عميقاً في تلك الأمسية. لكنّ بافِل لم يكن مهيّأ أبداً لقبول نبوءته كحقيقة مطلقة.

حين عاد الجيولوجيّ الشاب إلى الخيمة وجد الرجال مستلقين فوق الفراش وقد أشعلوا مصباح اللوكس الذي يعمل بالكاز. كانوا قد فتحوا قارورة عرق جديدة والغجريّ يغنّي بصوتٍ مدوٍّ، كانت الحياة على ما يبدو قد أعلنت بدايتها في تلّ الشيطان.

«هيّا يا رئيسنا!»، صاح بانايوت وقدّم له كأساً مترعة، وأردف: «إيّاك أن تنفصل عنّا كي لا نبتعد عنك! سترى بنفسك، سنعثر هنا في تلّ الشيطان على ذهبٍ وافر!».

«آه، أهلاً وسهلاً بنا!»، صاح بافِل وأفرغ محتوى الكأس في جوفه.

كانوا مستثارين وعلى ثقة كبيرة من أنّ الخيرات الدفينة في الصحراء ستنتقم لحياتهم المعدمة «المثقوبة».

«يا رئاسة، لماذ يطلقون على هذه المنطقة اسم تلّ الشيطان؟»، سأل الغجري بافِل.

«لأنّ هذه المنطقة كانت يوماً ما جحيماً ملأى بالشياطين»، أجاب كيرتشو.

«شياطين!»، أردف بانايوت بنبرة تشوبها مؤشّرات لحدوث جرائم بشعة في الماضي، وأضاف: «الشياطين اختفت منذ زمن بعيد عن هذا التلّ! الشياطين موجودة في مكانٍ آخر. هذه منطقة تلّ البالاما وليست تلّ شيطان يا رجل!».

t.me/qurssan

«المهمّ أن يدفعوا أجورنا، كلّ شيء ما عدا ذلك سيّان»، قال سلافتشو مُتأتِئاً.

تغلّب عليهم التعب بعد قليل وخلدوا للنوم. أمّا بافِل فخرج من الخيمة، فقد كان النوم قد جافاه على الرغم من الإرهاق الذي أصابه. توجّه نحو الحجارة المترامية في الأنحاء، تجوّل طويلاً في الأنحاء مستمتعاً بألق الليل والسماء المرصّعة بالنجوم، إضافة إلى جمالية الانعكاس الفسفوريّ الغريب المنبعث من بعض الحجارة فوق التلال. خيّم على المكان صمتٌ مطبق. كلاب الحماية ألفت حضوره ولم تنبح، والراعي المسنّ أطفأ سراجه في كوخه واستسلم للنوم.

تفكّر بافِل قائلاً: «بدا لي كلّ شيء هادئاً وساكناً حتى إنّني تساءلت عن الأسباب التي دفعت العجوز للتفوّه بتلك السخافات. كأنّنا لم نرُق له وتملّكته الرغبة بطردنا من التلّ بأيّ وسيلة ممكنة».

عاد إلى خيمته ثانية واندسّ في كيس النوم، حاول قراءة بعض الصفحات لكنّ سلطان النوم غلبه، أطفأ السراج وتأهّب للسُبات.

استيقظ ما بعد منتصف الليل بقليل، كانت الرياح قد هبّت من دون سابق إنذار، نُفخت أرجاء الخيمة وتطايرت أطرافها، ومن عمق الصمت الثقيل انطلقت أصواتٌ مخيفة غامضة. سمع بافِل جيّداً صوتَ عويلٍ ممطوط، تبعته أصواتٌ بشرية مخنوقة ثمّ صرخة عصابيّة مفاجئة. قفز بافِل على الفور من مكانه. استمع بانتباه للأصوات القادمة من العراء، تمكّن من التقاط أصوات وجعٍ بعيدة نسبياً، شخصٌ ما ينازع بألم وحسرة في العتمة تبعه صوت قهقهة، ضحكٌ جهنّميّ مرعبٌ ثمّ انطلقت أصواتٌ بشريّة. اشتدّت الرياحُ أكثرَ وأكثر كأنّ خطباً ما مريعاً يقتربُ من إحدى الجهات. شبحٌ مدّ أصابعه العظميّة القاسية الهائلة ليختطف.

ركض بافِل تجاه الخيمة الكبيرة، فوجد الرجال قد تجمّعوا عند مدخلها يرتجفون من برودة الليل والهلع.

t.me/qurssan

أشعل أحدهم فتيل مصباح اللوكس، فشاهد الجميع أفعى رقطاء سامّة تغادر بهدوء وسلام سرير كيرتشو، سارع الغجري نحوها وهرس رأسها. عنّفهم بافِل لأنّهم لم يضعوا الشباك الحامية من الأفاعي حول الخيمة كما يجب، وأوضح أنّه من العيب والخجل أن يرتعدوا هكذا لمجرّد ظهور أفعى مسالمة. لم يعلّق على كلماته أحد، واستمرّوا يتبادلون نظرات الحيرة وانعدام الحيلة. لكنّه شاهد في حدقات أعينهم المتّسعة المشاعر ذاتها ولسان حالهم يؤكّد تجوّل الشبح في الخيمة أو في العتمة من حولها.

«ليست الأفاعي أيّها الرئيس، الأفاعي لا تصرخ!»، أردف ريزو.

«استمِع للأصوات!»، صاح سلافتشو.

وفي تلك اللحظة انطلقت فجأة أصواتُ ضحكٍ مجلجل، أحدهم يتلوّى في الظلمة من وطأة نوبة الضحك تلك. تجمّدوا جميعهم من دون حراك وأجسادهم ترتعش من شدّة الخوف والهلع. لم يتحمّل كيرتشو أكثر من ذلك وانطلق ما بين الحجارة والصخور. لحق به الآخرون فتوقّف الضحك الهستيري بعد ذلك بلحظات.

«هذه مجرّد أصوات. أصوات الرياح!»، قال بافِل.

«بل هي الشياطين!»، أجاب التركيّ.

«الرياح تصفر في ثنايا الصخور المتآكلة»، حاول بافِل أن يشرح أبعاد هذه الظاهرة.

«لا، بل هي الشياطين»، أصرّ الآخرون على هذا الرأي.

«بل خرافات عجائز»، قال بافِل.

«يا رئيس، أرجو ألّا تنفصل عنّا»، وجّه الغجريّ حديثه لبافِل.

تبادل عاملا المرفأ في السابق والمعروفان بفظاظتهما نظراتٍ ملأى بالخوف، بدَوا في تلك اللحظة كأنّهما طفلان. أمّا التركيّ فكان قد استسلم تماماً للأمر الواقع. بانايوت أيضاً رسم على وجهه ابتسامة ذات معانٍ عديدة. كيرتشو والغجريّ وحدهما ملأا

t.me/qurssan

فضاء الخيمة بدخّان لفائف السجائر، وانشغلا برفع الشباك لإبقاء الأفاعي بعيدة عن مراقدهم.

نقل بافِل على الفور كيس نومه إلى خيمتهم لتهدئة روعهم قليلاً. شارفت الرياح على الخمود واختفت الأصوات فجأةً كما ظهرت، وارتفع غطيطُ الرجال المتعَبين وشخير نومهم واحداً إثر الآخر.

في تلك اللحظة تحديداً تذكّر بافِل الراعي العجوز. غادر الخيمة خلسةً من دون أن يلاحظه أحد، كان القطيع ساكناً ولم يسمع صوتاً أو جلبة داخل كوخ الجار المسنّ. كان على ثقة من أنّ العجوز مستيقظ، وأنّه قد استمع هو الآخر للجلبة التي حدثت في الأثناء منتظراً هبوب رياح العاصفة وحديث ثنايا الصخور المتآكلة التي تماهي أصوات البشر، تصرخ، تتهامس وتضحك. تذكّر أنّ العجوز قد استهزأ وسخر من الوافدين الجدد حين قابلهم للمرّة الأولى.

لمع وابلٌ من الشهب في الفضاء، وهناك في البعيد خلف الأفق كان من الممكن رؤية أنوار المدينة. الأخاديد معتمة جذّابة والحجارة تضيء كعظام الموتى بتجلٍّ فسفوريّ أبديّ. الصمتُ الهائلُ الذي لاحظه آنذاك حوّل حكاية الأصواتِ الشيطانية إلى ترّهات تافهة. حرق الجيولوجيّ الشاب لفافة تبغه، ثمّ عاد للنوم بين رجالاته. تذكّر لاحقاً حين تحدّث عن الليلة الأولى في تلّ الشيطان ما قاله: «أدركت في تلك الليلة أنّ العجوز كان على حقّ، ولم يبذل جهداً كبيراً ليكون محقّاً».

كانت الشمس قد ارتفعت منذ وقتٍ طويل في كبد السماء حين استيقظ رجال البعثة، وحظيرة الماشية بالجوار خاوية ولا أثر للماعز منذ وقتٍ طويل. اغتسلوا على عجل عند نبع عين الماء، تناولوا طعام الإفطار وانطلقوا إلى المكان المحدّد لبدء مسح المنطقة وقياسها. كلّ واحد يحمل بعض الأدوات والمعدّات الخاصّة لإنجاز هذه المهمة. بدؤوا يشعرون بشدّة حرارة الشمس الساطعة، لكن أحداً منهم لم يكن على بيّنة بحريق النهار الصيفيّ الحقيقيّ المنتظر. امتدّت في الفضاء العاري أكوامُ حجارةٍ بيضاء

t.me/qurssan

متناثرة كأنّها حبيباتٌ مزركشة تلمع فوق الأعشاب المحترقة.

بدؤوا بقياس المسافات، دقّ الحفّارون الفؤوس في رحم الأرض القاسية لزرع الأوتاد المختلفة. كان عليهم أن يحدّدوا المخرج الأوّل للخريطة الجيولوجية قرابة المتر عرضاً وخمسين متراً طولية. شرح بافِل لكلّ واحدٍ من فريقه طبيعة العمل الذي يجب أن يقوم به.

أحاول أن أتخيّل ملامح هؤلاء الرجال الآن وهم يستمعون لتوصياته، ولم يخطر ببالِ أيٍّ منهم القيام بأعمال حفر في هذا العراء القائظ! بدا لهم أنّ ما يحدث مجرّد مزحة ثقيلة.

ترك بافِل كيرتشو ليشرف على الأعمال وابتعد ليعاين المنطقة. فوجئ بالمنظر الغريب الذي شاهده في التلّ المجاور. كان المكان بأكمله مرصّعاً بمخلّفات ضخمة من الصخور وقد تمكّن عامل الزمن وتقلّبات الطقس من حفر أشكال ومجسّمات فنية مدهشة، كأنّ شخصاً ما قد حاول تشكيل أفكارٍ مبدعة لكنّه تخلّى عنها قبل إنجازها.

هناك في تلك البقعة، شاهد بافِل ذلك النحت الصخريّ الذي ترك لديه انطباعاً عميقاً.

«نحتٌ يحاكي إنساناً أسدل يديه وأرخى كتفيه وأحنى جسده قليلاً إلى الأمام. مسافرٌ حضر من مكان ما متوجّهاً إلى العدم. شخصٌ يذهب لطرف أحدٍ ما ولا ينتظر أحداً. هذا بالضبط ما قهرني وتغلّب عليّ، الشعور بالوحدة البهيجة». هذا ما حاول أن يبوح به بافِل على مسمع كوكو. وفي أحد جوانب المكان عثر على نحتٍ صخريّ آخر يشبه الفيل إلى حدّ كبير. ذكّره هذا النحت على الفور بالحسناء الرائعة باربرا.

«هل تمتلك فيلاً؟»، سألته باربرا ذات يوم، وأضافت: «المنطق السويّ يفترضُ امتلاك فيل!».

بعد تلك الحكاية قصّ علينا كيرتشو مراراً كيف أنّه شعر بالإحباط الشديد بعد مرور ثلاثة أيام من وصولهم إلى تلك المنطقة، عندئذٍ

t.me/qurssan

اصطحبه بافِل إلى مجسّم الفيل الصخريّ وقال له: «المنطق السويّ يفترضُ امتلاك فيل». الحقيقة أنّهم في صباح اليوم الأول من وصولهم إلى تلّ الشيطان لم يكونوا على بيّنة من طبيعة الأحداث والمفاجآت التي كانت بانتظارهم. الحرّ القائظ يشتدّ أكثر وأكثر. كأنّ الشمس تقترب بلا هوادة من الأرض. وعند الساعة العاشرة والنصف لم يعد بالإمكان السير أو الوقوف فوق الحجارة الملتهبة. الهواء ذاته سخن تدريجياً وغدا يمتصّ رطوبة رئاتهم. أخذ الرجال يعملون بصعوبة وبطء وغالباً ما ينظرون إلى تاج شجرة البلوط البعيدة. بعد ساعة من الزمن مزّقت الحجارة الحارّة نعال أحذيتهم، كما أنّ سخونة المقالع المعدنية المستخدمة في أعمال الحفر حالت دون ملامستها أو الإمساك بها. العرق يتبخّر على الفور فوق أجسادهم، وجفّت شفاههم على الرغم من سكبهم للمياه فوق رؤوسهم من دون أن يخفّف ذلك من وطأة معاناتهم. توقّفوا عن العمل الواحد تلو الآخر، بانايوت الخارج على القانون كان أوّل من ترك المعول من يده.

«لم أعثر على حياتي في الشارع!»، قال بانايوت.

نظر إليه بافِل بانتباه وأجاب: «أعتقد بأنّهم قد أخبروك في المدينة أنّ المهمّة ستكون صعبة للغاية!».

«لا، هذا غير صحيح!»، أجاب بانايوت على الفور.

«علينا أن نتحمّل على أيّ حال»، حاول المهندس كيرتشو دعم بافِل.

«لماذا، لماذا عليّ أن أتحمّل هذه المصاعب؟!»، صاح بانايوت.

«الشمس ستقتلنا!»، قال ريزو.

«إذاً، كلٌّ حسب قدراته»، حسم بافِل الأمر في نهاية المطاف.

أدار بانايوت ظهره للجميع وانطلق صوب شجرة البلوط، وسرعان ما لحق به الرجال الأربعة الآخرون. بافِل وكيرتشو كانا آخر من غادر مكان العمل. لم يحاولا الاستمرار بحفر الأرض ولحقا

t.me/qurssan

بالمجموعة صامتَيْن. ارتفعت درجة الحرارة إلى حدّ أجبرتهم على الالتزام بالصمت، وبعد حالة الأرق التي ألمّت بأعضاء المجموعة والقيظ المقيت، قرأ بافِل في تقاطيع وجوه جماعته نوايا واضحة محدّدة، كانت نظراتهم تجول في أنحاء المنطقة كافّةً بحثاً عن أمرٍ في منتهى الأهمية: النجاة.

لم يخطر بباله في ذلك اليوم أن يحاول التأثير بشكلٍ ما في أعضاء بعثته، لأنّ هذا يعني عملياً تحميل الأمور أكبر من طاقتها. لذا ترك الأحداث تأخذ مسارها التلقائي.

تجمّع الرجال تحت جذع شجرة البلّوط ليستظلّوا بأغصانها، وبين الحين والآخر يهرع أحدهم إلى ينبوع الماء ليرطّب جسده بالماء البارد بصمت مطبق.

عاد الراعي وقطيعه إلى كوخه عند الظهيرة للاحتماء من حرارة الشمس. أمضوا القيلولة بسلام، ماعز ورجال، رجال وماعز. جلس العجوز يوردو جانباً ملتزماً الصمت، وفي الأثناء يعبّ دخان غليونه بمتعة بالغة، وبين الحين والآخر يلقي عليهم نظرة متسامحة. كان من الواضح عدم وجود أيّ رغبة لديه ليتبادل الحديث معهم. ربّما وجدهم رجالاً لا يستحقّون الاهتمام، عابرو طريق كما ثلّة الرجال الذين سبقوهم وأولئك الذين سيحضرون من بعدهم. كان العجوز قد ألمّ ببعض الحقائق الفضولية المتعلّقة بمهام خبراء الجيولوجيا وكنه علوم مسح الأرض من أعضاء البعثات السابقة، لذا لم تكن لديه حاجة إلى معرفة المزيد. وبدلاً من ذلك، انهمك العجوز بتنظيف ظهور الماعز والوعول من الأشواك التي علقت بجلودها. سبعة رجال راقبوه كيف ينظّف أفراد قطيعه بابتسامة ونشوة عارمة. في تلك اللحظة، شاهد بافِل كفّيه الهائلتين وأصابع يديه المتشقّقة والبشرة الملساء المحيطة بها وأظافر أصابعه المتسطّحة كالحجّارين.

«هيه! أيّها العجوز، كيف تسير أمورك هنا؟!»، سأله بافِل.

ضحك العجوز على الفور وأجاب: «أنا بألف خير، أجمع دفء الصيف للشتاء، وأجمع برد الشتاء للصيف». ثمّ وضع حقيبته

t.me/qurssan

تحت رأسه، وانقلب على جانبه ونام بسكينة.

لم يعد بالإمكان تحمّل حرارة الشمس الشديدة في ساعات الظهر وما بعده، ولا حتى في ظلّ شجرة البلوط، وكان من العبث أيضاً التفكير بممارسة أيّ عمل أو القيام بمجهود جسدي. لذا لم يخطر ببال بافِل أن ينطلق لمواصلة العمل مجدّداً. واصل قيلولته طوال الوقت يحدوه أملٌ أنّ رجالاته سيتأهّبون للعمل مع رحيل قرص الشمس إلى الأفق، لكن من دون طائل، يبدو أنهم قد حسموا أمرهم نهائياً.

عندما قاد العجوز يوردو قطيعه ما بين الأخاديد بحثاً عن بعض سيقان الأعشاب المتبقية في البرية، وقف بافِل من دون تردّد، تناول مطرقته الجيولوجية وتوجّه إلى موقع العمل، وحده كيرتشو لحق به. أتخيّل تلك اللوحة: يتابع كلاهما المسير وبين الحين والآخر ينظران إلى الخلف ليتحقّقا مما إذا قد قرّر أحد أولئك الرجال المضطجعين تحت الشجرة اللحاق بهما. لكنّهم استمرّوا في قيلولتهم من دون أن يحرّك أيٌّ منهم ساكناً.

«لن نتمكّن من الاعتماد عليهم لإنجاز أعمالنا!»، قال كيرتشو بقلق.

«وهل هناك بديل؟»، تساءل بافِل.

«لا أدري!»، أجاب الفتى.

«لذا سننجز مهامّنا وحدنا»، قال بافِل، ثمّ دلفا إلى الحفرة التي نبشوها ليواصلا العمل.

بعد قرابة ساعة حضر الغجريّ يحمل إناءَ ماءٍ محاولاً الاعتذار بقهقهة خافتة، أمّا الأربعة الآخرون فلم يحاولوا الاقتراب نهائياً من موقع الحفر والعمل.

«عليك أن تتحدّث إليهم في المساء»، قال كيرتشو موجّهاً حديثه لبافِل.

«وماذا أقول لهم؟»، أردف بافِل.

t.me/qurssan

«عليهم أن يدركوا أهميّة هذه الوظيفة حسب عقد العمل المبرم بمحض إرادتهم. عليك أن تلزمهم بتنفيذ مهامهم».

غرس بافِل الذراعَ المعدنيّة في الأرض، رمق الفتى بنظرة هادئة صافية وقال: «لا أحبّذ أساليبَ العنفِ والإكراه».

لم يستوعب كيرتشو كلمات بافِل، لكنه بعد نصف ساعة قال مستهجناً: «أنت تجهد نفسك الآن وتعمل منفرداً، أليس كذلك؟ هذا إكراه وعقاب ذاتي!».

«لا، أبداً»، أجاب بافِل.

نقل كيرتشو تحديداً هذا الحوار الذي دار بينهما بعد أسبوع، حين قرّر العودة إلى المركز، لذا أقرّ الموظفون بأن بافِل لا يمتلك كامل قواه العقلية.

تناول أعضاء المجموعة طعام العشاء بصخب في المساء، ثم انكبّوا على لعب الورق، وفي الأثناء انسلّ بافِل من الخيمة وتوجّه إلى شجرة البلوط. تأمّل غصن الشجرة الذي أشار إليه العجوز في الليلة الماضية. الغصن متينٌ للغاية ويمتدّ أفقياً ويبدو مثالياً للانتحار شنقاً.

«عندئذٍ تفكّرت فيما إذا كنت على استعداد يوماً ما للانتحار! وجدت أنّ عليّ الاعتراف لك أنّ أكثر ما تمقته روحي هو الانتحار في هذه الدنيا. لأنّ المنتحر لا يكتفي فقط بحرمان جنين المستقبل من حقّ الحياة، لكن الغبيّ اللعين يقتل نفسه أيضاً. لا يوجد مبرّر لقتل الذات أبداً. كان العجوز قد أشار إلى غصن الشجرة، تفكّرت عندئذٍ أنّ الغصن سيجفّ على الأغلب قبل أن أضع الأنشوطة حول عنقي».

هذا النصّ مقتطع من الخطاب الذي تفضّل بإرساله لي كوكو، كتبه بافِل خلال الأسبوع الأول من إقامته في تلّ الشيطان. الحقيقة أن هذه الوضعية التي ذكرها بافِل قد أصابتني بالدهشة.

كانت الشمس قد غابت للتوّ والعجوز يوردو عاد بمعيّة القطيع،

t.me/qurssan

حلبَ الماعز وجلس فوق جذعٍ صغير وسط الحظيرة. وقف بافِل بالقرب من السياج يراقب أغرب منظر شاهده يوماً ما، كان يرغب بالحصول على إجابةٍ تشفي غليله.

أحاطت المعز بالعجوز من كلّ جانب مصوّبة أنظارها إلى وجهه مباشرة. يناديها الواحدة تلو الأخرى بأسماء غريبة، يمدّ يده نحوها، يلاطفها ويقدّمُ لها الخبز وبعض الطعام الذي جمعه في جعبته. تهيّأ لبافِل أنّها تقترب من العجوز من دون تزاحم، وبفيضٍ من الحبّ الوديع تمرّغُ سحنتها الرطبة بكفّي العجوز وأعينُها تلمعُ راضية.

«ماغي... تعالي! ماغي!». يصيح العجوز يوردو بصوت خفيضٍ ويمدّ يده مبتسماً نحو الماعز المقبلة. يداعبُها بأصابعه الضخمة المتشقّقة، يقدّم لها كسرةَ خبزٍ ثمّ يبعدها بلطف، ويصيح على الماعز التالية لتحضر: «فاكي... تعالي! فاكي!».

راقب بافِل بذهول هذه اللوحة الطبيعيّة المثاليّة، وتملّكته أكثر من أيّ وقتٍ مضى قناعة بأن ما يراه أنموذج رمزيّ وأنّ العجوزَ ليس مجرّد رجلٍ مسنّ فحسب، بل إله. وأنّ الماعز ليست ماشية بل مخلوقاتٍ روحانيّة. في وقت لاحق سيدركُ بافِل أنّ العجوزَ يعرفُ أسماءَ الماعز والتيوس جميعَها بلا عناءٍ يُذكَر مع أنّ تعدادها يفوق المئتين. أسماء اختلقها بنفسه ولم يسبق له أن أخطأ في ذكرِها. عدا ذلك، يعرف الراعي جيّداً كلّ التفاصيل المرتبطة بطبائعها وخصوصيّاتها.

وإذ استمرّ العجوزُ بالنداء على أفراد الماشية الواحد تلو الآخر، لم يتوقّف عن محادثتها وملاطفتها كما يحادث الإله مخلوقاته.

«لماذا تبدين ناعسة؟!» -خاطب العجوز الماعز يوكا- «هذا بفعل الشمس يا ابنتي. همم... ستشعرين بالتحسّن الآن. أليس كذلك؟!».

ثغت الماعز بين كفّيه وهزّت رأسها راضية.

ثمّ أردف العجوز: «سنذهبُ غداً إلى مربّع جورلوتو، هناك في تلك

t.me/qurssan

المنطقة الخفيضة تنمو أعشاب شهيّة للغاية. أتعرفين ذلك؟ هيه، جورلوتو تنعم دائماً بأعشاب وفيرة، وحين تحترق الخضرة في كل مكان، تبقى الأعشاب هناك سامقة».

ثم يعتني مطوّلاً بأجراسِها المتنوّعة، ينظّفها ويستمعُ للنغمات الموسيقية المنطلقة من تلك الأجراس.

وقف بافِل بالقربِ من السياج متفكّراً: «عجوزٌ ورؤوسٌ من الماعز».

فجأة تملّكته رغبة عارمة أن يصبح صنواً لهذا العجوز، أن يتخلّى عن كلّ شيءٍ في الأنحاء ويمضي مع قطيعه. فقد كان مأخوذاً إلى درجةٍ كبيرةٍ بسحرِ هذا الغريب في عالم الماعز. هنا في هذه اللوحة تحديداً أبحثُ عن المبرّرات التي أوجبت بقاءَ بافِل في الصحراء. وأظنّه في الوهلة الأولى لم يخطر بباله إمكانيّة محاولة ممارسة العيش كالجدّ يوردو. جاء قرارُ البقاءِ هذا كهبّة ريحٍ من دون تخطيطٍ مسبق.

«عجوزٌ ورؤوسٌ من الماعز».

بعد قضاء نهار عمل شاقّ تخلّله امتعاضٌ من سوء تصرّف المنتكسين عن أداء مهامهم وربّما التخلّي عن الجماعة نهائياً، اكتشف بافِل في شخصيّة العجوز وقطيع الماعز حقيقةً مغايرة. كانت انطباعاته عميقة للغاية حتى أنه باح لكيرتشو قائلاً: «هذا ليس مجرد رجل عجوز، وهذه ليست محض معز».

الليلة الثانية كانت أقسى وأشدّ وقعاً من سابقتها. لم تهبّ الريح ولم يُسمع صوت عواء. بدا تل الشيطان ساكناً كالموت. لكنّ الغريب أنّ الرجالَ الثمانية لم تغمض لهم عين. شخصٌ ما أو قوّة غريبة سحرتهم لتبقيهم يقظين متوتّرين طوال الوقت مستيقظين حدّ العبث، كأنّ لحظة صفاء مطلقة قد حطّت في صميم وعيهم. كأنّهم على بيّنة بأنّ شخصاً ما على وشك الحضور، يقترب ولا يوجد بينهم من يمتلك الإرادة للاسترخاء والتحرّر من حالة الانتظار، لتفضيلهم مواجهته يقظين لحظة دخوله وعند

t.me/qurssan

عتبة التماس مع حالة الرعب المتوقّع.

أدرك بافِل قلق الرجال المتقلّبين في الفراش محرومين من نعمة النوم، يتبادلون النظرات وقد طغت عليهم مشاعر الخوف والشكّ أمام ذاك الذي سيدلف إلى مخدعهم في أيّ لحظة.

تحدّثوا عن ضرورة تغلّبهم على حالة الصمت الموحشة، لكن الخوف والتوتّر الشديد نخرا أصواتهم، فبدَت واهنة.

«يا معلّم. هل الراعي والماعز حقيقة وواقع؟»، تساءل الغجريّ.

«وهل نحن حقيقيّون؟»، أجاب بافِل ضاحكاً.

«لا ليسوا كذلك. إذا دقّقت النظرَ فيهم فستدرك أنّهم وهميّون. هذا المكان يا معلّم مرصود بسحرٍ أسودَ مروّع!»، أردف الغجري.

«كفى، هذا هراء!»، صاح كيرتشو.

«كلامٌ فارغ! لكنّك أنت أيضاً لا تجد وسيلة للنوم»، صاح ريزو ثم أضاف: «ليس مصادفة أن جميع من سبقونا إلى هنا قد ولّوا هاربين».

احتار بافِل بكيفيّة الردّ على تساؤلاتهم، ولم يكن لديه على الأرجح ما يقوله، على الرغم من أنّه استشعر كذلك الأجواء الغريبة في محيط المكان. لم يتمكّن بافِل لاحقاً من العثور على حجّة ومبرّر لفهم كوابيس أولى الليالي التي أمضوها في التلّ. لكنّه ما يزال على قناعة من أنّ المسبّبات تكمن في حالة الإيحاء الجماعيّة التي سيطرت عليهم.

ثم طغى الصمت الثقيل ثانية في المكان. صمتٌ أثيريّ لحضورٍ ما غير مرئيّ.

«يوجد شخصٌ ما هنا في الداخل، شيءٌ اندسّ ما بيننا»، همس سلافتشو، وسرعان ما غمر رأسه بالغطاء من شدّة الخوف.

«يا معلّم!»، قال الغجري: «أنا خائف! لم يسبق لي قطّ أن شعرت بالهلع إلى هذا الحدّ».

t.me/qurssan

«يوجد شخصٌ في خيمتنا، هناك من يريد أن يحزّ رقبتي!»، ردّد سلافتشو بلسانٍ متعثّر غير سويّ.

«كفى! أتظنّ رقبتك ثمينة لتغري من يحزّها؟!».

حدّق بافِل في تضاريس وجوههم المتجهّمة المنقبضة، ثمّ رفع وهج نور الإضاءة ليتمكّن من تبديد أجواء الغموض المتخيّلة.

فجأةً صرخ بانايوت وقفز من السرير، فرأوا بضع أفاعٍ تزحف بجانب الفراش الممدود في أرض الخيمة. رفعت الأفاعي رؤوسها الصغيرة تجاههم، كأنّها هي الأخرى قد أُصيبت بالدهشة لهذا اللقاء غير المتوقّع.

أُصيبوا بالرعب والاشمئزاز وانسلّوا بسرعة إلى الخارج.

«هذه ليست أفاعٍ حقيقيّة!»، صاح التركيّ.

الغجريّ كان الأشدّ بطشاً بينهم، عاد إلى داخل الخيمة وأخذ يدقّ رؤوسها الواحدة تلو الأخرى، ثمّ قذف بأجسادها بعيداً في العراء.

«ما رأيك يا معلّم؟!»، انتصبَ بانايوت الرجل ذو الحذاء المثقوب بتأهّب.

«رأيي، هذه مجرّد أفاع»، أجاب بافِل.

«لا، ليست أفاعيَ حقيقية»، أكّد التركيّ كلمات بانايوت.

«لا، هذا مستحيل. لا نريد أموالك ولا نرغب بالبقاء في هذا التلّ اللعين!»، صاح الرجلان القادمان من المرفأ.

كان الرجال على أتمّ الاستعداد للمغادرة على الفور، لكنّهم فضّلوا الانتظار حتى الفجر.

«ألم يتدخّل المهندس بشأن هذه التطوّرات؟»، سأل الموجودون في القاعدة كيرتشو خلال تقديمه لتقريره الميدانيّ.

«لا، على الإطلاق»، قال كيرتشو وأضاف: «عاد إلى داخل الخيمة،

t.me/qurssan

فتح قارورة عرق وجلس بمعيّة الغجريّ لاحتساء الشراب. ثمّ انضمّ الآخرون إليهما وأفرغوا بضع قوارير أخرى، كأنّ المسألة انتهت عند هذا الحدّ».

ثمّ أحكموا نصب الشباك لصدّ الأفاعي، نظّفوا المكان وجلسوا في أسرّتهم.

«يبدو أنّ النوم سيجافينا هذه الليلة، دعونا نلعب بالورق!»، صاح أحدهم.

انخرط جميع الرجال بلعب الورق باستثناء بافِل الذي استلقى بالقرب من مدخل الخيمة موجّهاً أنظاره تجاه كوخ الراعي العجوز. تهيّأ له ثانية أنّ الرجل يراقب كلّ ما يحدث من الثقوب والفتحات، يتابع ما يدور في داخل الخيمة ضاحكاً. على الأرجح هذا ما فعله كذلك مع البعثات السابقة.

كان بافِل متيقّناً من أنّ الأفاعي لم تنسلّ يوماً إلى سرير العجوز، وأنّه لم يعانِ يوماً من ليالٍ مشبعة بالكوابيس. ثمّ تذكّر تلك اللوحة الرعوية: يقفُ العجوزُ وسط الحظيرة بسعادة بالغة تحيط به ماعزه الحبيبة، كأنّه وليّ أمرها وسيّد تلّ الشيطان.

استمرّ الآخرون بلعب الورق حتى الفجر وخلدوا للنوم في الصباح، بافِل استسلم لسلطان النوم منذ وقتٍ طويل. استيقظ حين ارتفع قرص الشمس عالياً فوق الأفق، نهض على الفور، حاول أن يوقظ رجالاته لكنّهم رفضوا الانصياع له. اكتفوا برفع رؤوسهم قليلاً ثمّ غطّوا في نومٍ عميق. وحده الفنيّ كيرتشو استجاب لرغبة بافِل. الحظيرة في الجوار كانت فارغة تماماً، من الواضح أنّ العجوز يوردو قد مضى بعيداً برفقة قطيعه ولم يعد يُسمع لهم صوت أو جلبة.

تناول الرجلان الطعام على عجل، ثمّ حملا أدوات العمل وانطلقا مجدّداً إلى قيظ الصحراء الثقيل. كان من الواضح أنّ الشمسَ قد قرّرت في ذلك اليوم تصفية حساباتها معهم. الهواء جافّ وساخن للغاية، والحصى تحت أقدامهم ملتهبة كأنها حديدٌ متأجّج، ولا

t.me/qurssan

ظلّ في الأنحاء يسترون به رؤوسهم المحسورة، سقف السماء صافٍ وعينُ الشمس هائلة تحدّق في سحنَتَي الرجلَين البائسَين، وكانا على وشك مسح هذه القطعة العصيّة من الأرض وقياسها.

«لا أظن أن هناك فكرة أسوأ من مسح هذه البقعة من الأرض وقياسها، لم أتمكّن من العثور على إجابة شافية بشأن ضرورة قياسها!». هذا ما كتبه بافِل في خطاب آخر لعناية كوكو.

الشعور بالعبثية يدفع الناس أحياناً لإنجاز بعض المهام حتى النهاية ما يوصف بالبطولة. لذا اقترحَ بافِل على كيرتشو الاستمرار بالحفر والتخلي عن استراحة الغداء. وافق الفتى على الفور وقد تملّكته رغبة كبيرة بمجاراة رئيسه، الذي أُعجب به لسبب ما على الرغم من كلّ التناقضات المرتبطة بشخصيته. الأرض تبدو صلبة للغاية، بافِل يحفر وكيرتشو يزيل المخلّفات والتراب، والحفرة لفرط دهشتهم تكبر وتتّسع.

استمرّا بالعمل حتى العصر متحمّلين الظروف الطبيعية القاسية. أخيراً ومع اقتراب الساعة الرابعة بعد الظهر، خرج الرجال من الخيمة وذهبوا إليهما باستثناء عاملي المرفأ ريزو وسلافتشو. انهمك الجميع بالعمل حتى المساء وكأنّ المياه قد عادت إلى مجاريها. بات بافِل على قناعة من أنّ الأزمة قد مرّت، وأن هناك ضرورة فقط لتحسين ظروف الإقامة والمعيشة ليتمكّنوا من إنجاز أعمال المسح الجيولوجي في الوقت المحدّد على أكمل وجه. عادوا أدراجهم بعد ذلك منتعشين يردّدون الأغاني، وفي تلك اللحظة تمنّى الجيولوجيّ الشاب أن يشاهدهم العجوز ويستمع لصخبهم وبهجتهم.

لكن، عندما وصلوا إلى شجرة البلوط، أدركوا أنّ ريزو وسلافتشو قد اختفيا آخذين معهما أمتعتهما الخاصّة، زعزع هروبهما على الفور معنويّات رجال البعثة وثبّط من عزائمهم. دار بافِل حول الخيمة وقال: «حسناً، هذا خيارهما. يمكن لأيّ واحدٍ منكم المغادرة إذا أراد ذلك». ثمّ انطلق إلى نبع الماء ليغتسل.

كان العجوز أيضاً قد عاد من رحلة الرعى جاهداً بتمرير القطيع

t.me/qurssan

من منتصف الحظيرة إلى الجزء الآخر عازلاً في الوقت نفسه الماعز عن التيوس. توقّف بافِل بالقرب من القطيع المتشابك وصاح: «كيف الحال أيّها الجدّ، أتحصي الماعز؟!».

أدار العجوز رأسه تجاه بافِل وقال مستهزئاً: «لا حاجة لي بتعداد رؤوس ماعزي، لكن عليك أن تعدّ رجالك بين الحين والآخر!».

«نعم، هذا صحيح، هرب اثنان!»، أجاب بافِل.

«بل سيهربون جميعهم، هرب الكلّ من هنا، الغابة هربت من هنا والوحوش أيضاً، لم يبقَ سوى الحجارة والأفاعي المترصّدة».

«وأنت؟»، تساءل بافِل.

«دعكَ منّي!»، أجاب العجوز بأسى وأردف: «قلت لك ابتعدْ قبل فوات الأوان... وإلا!».

«لا نيّة لي بالموت شنقاً»، أجاب بافِل جذلاً وأضاف بنبرة تحدٍّ واضحة: «دعكَ منّي أيضاً!».

رمقه العجوز مندهشاً وهزّ رأسه بريبة.

انطلق بافِل إلى عين الماء واغتسل مطوّلاً بالماء البارد.

«أتدري يا كوكو، حين يحدّق أحدٌ بك من دون انقطاع، تغمرك رغبة بوخز عينيه بأصابع يدك». كتب بافِل لصديقه كوكو.

جلس من تبقّى من أعضاء البعثة لتناول العشاء. فضاء الخيمة كئيب وضجر للغاية، فشل الغجريّ في إضحاكهم وتسليتهم على الرغم من محاولاته العديدة، ثم انشغل بافِل بتثبيت الشباك حول الخيمة لمنع دخول الأفاعي، وبدا خلال ذلك نشطاً ويتمتّع بمزاج جيّد. لكن وعلى الرغم من ذلك، توجّس باقي أعضاء البعثة خوفاً من عتمة الليل المقبلة. اقترح بانايوت لعب الورق وعدم الخلود للنوم طوال الليل. تجمّع الرجالُ الأربعة حول لمبة اللوكس باستثناء بافِل واستمروا باللعب حتى الصباح. توقّفوا مرّة واحدة عن اللعب وحاولوا إيقاظ بافِل، أخبروه بأنّ الرياح الغريبة قد

t.me/qurssan

هبّت ثانية تصاحبها أصوات مخيفة مرعبة. أصوات شياطين تشابه الأصوات البشريّة. تجمّد الرجال الأربعة في أمكنتهم كأنّهم أصيبوا بالشلل.

«قلت لكم إنّ الأصوات تصدر عن الحجارة»، حاول بافِل أن يفسّر لهم ما يحدث.

«بل الشياطين يا معلّم. هي الشياطين، باب جهنّم يوجد في ركنٍ ما من هذا المكان»، صاح بانايوت.

«وما الغريب في ذلك؟ لنعش قليلاً مع الشياطين!»، أجاب بافِل ثمّ نام على الفور. راقب الآخرون وجهه الهادئ الساكن مؤكّدين أنّه مشؤوم وسيقضي عليهم جميعاً، ومن الأفضل أن يسلكوا طريق العودة بعيداً عن هذا المكان.

لم تدخل أفعى إلى خيمتهم في تلك الليلة، ربّما بسبب ثرثرتهم المتواصلة أو لضوء المصباح. أصابهم السهر الطويل بالإرهاق مع شروق الشمس واستسلموا الواحد تلو الآخر للنوم وحزم أوراق اللعب بين أيديهم.

وحده بافِل خرج للعمل مع الساعات الأولى للنهار، وفي أثناء ذلك كان العجوز على وشك اصطحاب ماعزه للمراعي. رأى الجيولوجيّ الشاب حاملاً العدّة وأدوات العمل متأهّباً للانطلاق. هزّ العجوز رأسه وصاح: «لماذا تعيد هذه الأدوات إلى الخيمة كلّ مساء؟ أتظنّ أنّ هناك من يفكّر بسرقتها في هذا الخلاء؟!».

حدّق بافِل في الوجه المبتسم المتشقّي معتقداً أن العجوز يشعر بالبهجة لأن هذه البعثة الجيولوجيّة هي أيضاً على وشك أن تكرّر مصير سابقاتها. لذا فضّل تجاوز الراعي بصمتٍ، بيدَ أنّ الأخير صاح به: «اقتربْ أيّها الفتى!».

تقدّم بافِل نحوه بفتور، دخل العجوز إلى كوخه وأحضرَ إبريقاً من الحليب الطازج.

«اِشربْ. صدّقني، لن تشرب في حياتك مثل هذا الحليب العذب!»،

t.me/qurssan

قال العجوز وابتسامة عذبة قد ارتسمت على وجهه.

شرب بافِل الحليب الكثيف الزلال حلو المذاق، وسرعان ما صَفَر قائلاً: «لم أشرب في حياتي مثل هذا الحليب!».

ضحك العجوز بسعادة غامرة: «أترى؟ كلّ من يشرب من هذا الحليب يتذكّرني طوال الحياة».

انطلق بافِل في طريقه إلى منطقة الحفر، وعند الظهر حضر كيرتشو حاملاً بعض الماء ثمّ انضمّ إليهما الغجريّ. سارت أعمالُ الحفر بصعوبة بالغة مقارنة باليوم السابق، لكنّ المحصلّة جاءت مخيّبة للآمال. حلّت مجدّداً أوقاتٌ عصيبة، وبدا تلّ الشيطان كفرنٍ هائل يخبز الأرغفة على الفور. في تلك اللحظة شاهد بافِل ظلّ رجلين يبتعدان في التلال المقابلة متوجّهَيْن إلى الشرق. عرفهما على الفور، بانايوت وحسين التركيّ. رمى بافِل الفأس ولحق بهما. يجب التعامل مع هذه الخطوة وتوضيحها وفقاً لخصوصية الحدث، لأنّ تصرّفه هذا غير مبرّر في وقتٍ آخر ومكانٍ مختلف عن هذا التلّ. بافِل الرجل الوديع الوسيم انطلق غاضباً في أثر الهاربين اللذين سارعا الخطا بعد أن شاهدا بافِل يركض خلفهما.

«قِفا! ارجِعا فوراً!»، صاح بافِل بهما.

شهدت تلك المنطقة في ذروة الحرّ القائظ مطاردة شرسة خالية من أيّ معنى. تمكّن بافِل تدريجياً من اللحاق بهما بعد أن خارت قوى الرجلين بسرعة. كان هو الأقوى وتمكّن أخيراً منهما، طرحهما أرضاً مصوّباً لكماته لوجهيهما. نظر إليه الهاربان وقد ترك التعب والغضب أثراً بالغاً في تضاريس وجهيهما، ثمّ أُصيبا بالحيرة بسبب عجزهما عن مقاومة الأمر الواقع.

في تلك اللحظة بالذات استعاد بافِل رباطة جأشه وطبيعته اللطيفة المألوفة. ابتسم وأردف بهدوء وطمأنينة: «آه، ما دمتما لا تقويان على البقاء، يمكنكما الرحيل!»، ثمّ تركهما وابتعد.

علّق حسين على هذه الحادثة فى ما بعد قائلاً: «اعتقدنا بأنّه

t.me/qurssan

سيشبعنا ضرباً، لكنّه هدأ فجأة، ثمّ طفق يضحك وغادر المكان. يا له من رجل غريب الطباع!».

عاد بافِل أدراجه إلى مركز العمل، عندئذٍ سأله كيرتشو بحيرة: «والآن، ما العمل؟».

«سنواصل المهمّة بانتظار أن يوفدوا آخرين»، أجاب بافِل ثمّ صبّ الكثير من الماء الذي أحضره الغجريّ فوق جسده. وفي وقتٍ لاحقٍ انفصل عن صاحبَيْه اللذَين لم يتخلّيا عنه، ثمّ توجّه إلى تلك المجسّمات والهيئات الحجريّة الغرائبيّة. بعد بضعة أشهر اعترف بافِل بأنّه يعشق هذا المكان الذي يرتفع فيه مجسّم الفيل الصخريّ، وأضاف إنه يرى فوقه صديقته الفاتنة باربرا عارية.

«أتعرف بأنّك تخسر الكثير إذا لم تمتلك فيلاً؟! بالمناسبة، ما قيمة الإنسان من دون فيل؟» قالت له باربرا. ابتسم بافِل الذي كان يتقبّل كلّ شيء منها عن طيب خاطر.

«يا إلهي! كيف يمكن العيش من دون فيلة؟»، ضحكت باربرا جذلة وأضافت: «أنت المشّاء الأبديّ، لذا سِر ولا تتوقّف أبداً. لكن حاذر أن تثير الكثير من الغبار كي لا تظلّل عين الشمس».

بانت الكآبة والحزن في المساءِ على وجه بافِل. اجتمع الثلاثة لتناول طعام العشاء بصمت. سارع بافِل بالنوم وفضّل كيرتشو والغجريّ السهر حول مصباح اللوكس. أصيبا بأسىً وكآبة شديدة بعد أن شاهدا رئيس البعثة قد نام بهدوء وسكينة. ظنّ كيرتشو أنّ الوقت قد حان ليخوض بافِل معركة بطولية لإيفاد أعضاء جدد لقوام هذه البعثة. أن ينذر القاعدة لتأمين ظروف عمل ملائمة ومريحة في تلّ الشيطان وما إلى ذلك. في مثل هذه الظروف الاستثنائيّة يحتاج سواد الشعب للخطابات والخطط والشعارات وبافِل في الأثناء غارق في نومٍ عميق.

في اليوم التالي عرض الغجري خدماته طارحاً فكرة المغادرة إلى أقرب قرية في المنطقة للاتّصال هاتفياً بالمركز وإخبارهم بحقيقة الأوضاع في التلّ. أدرك بافِل على الفور نواياه الخفيّة

t.me/qurssan

لكنّه لم يُبدِ اعتراضاً. هذا ما حدث ولم يعدْ الغجريّ إلى التلّ نهائياً بعد ذلك. كانت الأحداث تسير تماماً وفق التنبّؤات التي أطلقها العجوز يوردو، والتي تحقّقت بشأن البعثات الثماني السابقة. طردهم حرّ الصيف القائظ والأفاعي وكوابيس الليل وأصوات الشياطين والشعور بالعزلة وقناعتهم أنّ العالم الخارجي قد تخلّى عنهم بالكامل.

في اليومين التاليين أنجز بافِل وكيرتشو الكثير من أعمال الحفر وما يترتّب على طبيعة خطط المسح الجيولوجيّ. استمرّ بافِل يعمل بجدّ ونشاط كأنّ شيئاً لم يحدث. لكنّ التعب كان قد نال من همّة الفتى، على الرغم من تعلّقه بالمهنة ورغبته الكبيرة بمجاراة رئيسه. عدا ذلك، أدّت درجات الحرارة المرتفعة إلى فساد المؤن الغذائية المحفوظة في المستودع. طعمُ علبِ الطعام باتَ كريهاً وتصلّب الخبز وتعذّر التهامه، والاثنان يكتفيان بتناول البطاطا المسلوقة فحسب. تشمل بنود الاتفاقية المبدئيّة بين البعثة والقاعدة الجيولوجية في المدينة إرسال التموين كلّ سبعة أيام. بعد انقضاء الأسبوع وقف الجيولوجيّ الشابّ أمام بافِل وقال متلعثماً: «ألم يحن الوقت لنغادر نحن أيضاً أيّها الرئيس؟ نغادر كما فعل كلّ الذين حضروا من قبلنا إلى هنا». بافِل على ما يبدو كان يتوقّع استسلام الفتى للأمر الواقع.

«غادِر أنتَ إذا أردت، أمّا أنا فسأبقى»، أجاب.

«ولكن لماذا؟».

«لا أدري، لكنّي أريد البقاء».

«وما معنى بقائك وحيداً في التلّ؟ لا يمكنك الحياة والعمل بمفردك!».

«لا أدري»، أردف بافِل.

«أم أنّك تريدهم الاعتراف بكَ بطلاً؟».

«أترى يا كيرتشو، يمكنني اتخاذ قراري بمغادرة التلّ والعودة معك

t.me/qurssan

إلى المركز، لكنّي أرفض أن يجبرني أحدٌ على ذلك».

ارتبك كيرتشو وكان من الصعب عليه قبول واستيعاب هذا الشخص الذي يحمل اسم بافِل. بعد بضعة أشهر أفاد بأنّه قد فشل في التعامل مع بافِل كرفيق أو رئيسٍ للبعثة، وبقي شخصاً غريباً غير تقليدي. بعد هذا الحديث قال بافِل للجيولوجيّ الشاب: «عُدْ إلى المدينة وأخبِرْ رئيس القاعدة بأنّني سأبقى هنا وسأنتظر مجموعة عمل جديدة. توجد إمكانية لإنجاز كلّ المهام المطلوبة باستبدال مجموعات العمل كلّ أسبوع».

عندئذٍ أجهش كيرتشو بالبكاء: «أنا لست وضيعاً يا رئيسي، لكنّي أصدقك القول، لا أحتمل البقاء هنا. ليس الحرّ ولا الأفاعي ولا حتّى الشياطين ما يحثّني على الرحيل، لكنّ هذا المكان يدفعني للانتحار».

شيّعه بافِل إلى التلّ المجاور، وتابعه بنظراته حتى اختفى الأخير خلف الأفق. بقي وحيداً ومعزولاً تماماً، لكن في تلك اللحظة بالذات ظهر من الجهة المقابلة قطيع الماعز والعجوز يوردو يتهادى بينها ببطء. تملّكت بافِل رغبة بالاختباء في خيمته، فقد كان على يقين من أنّ العجوز سيوجّه له السؤال المتوقع: «وأنت، متى ستغادر؟!».

لكن وعلى الرغم من ذلك جلس تحت شجرة البلوط، أشعل لفافة تبغ ناظراً بهدوء إلى قطيع الماعز المقبل نحوه. كان العجوز منشغلاً في تلك الأثناء برعايتها ولم يلحظْ بافِل.

أظنّ الآن أنّ بقاء أعضاء البعثة كان عبئاً على بافِل، وكان عليه أن يأخذ بالحسبان احتياجات كلّ فردٍ من المجموعة لمصلحة العمل الجماعي. أن يهتمّ بهم ويستجيب لرغباتهم، أن يحمل همّهم بشكلٍ أو بآخر، أن يتعايش مع مخاوفهم وأن يقدّم لهم المزيد من التنازلات من أجل راحتهم والتعامل مع العديد من القضايا التي لا تهمّه إطلاقاً. وبكلماتٍ أخرى: اغتصاب الذات طوال الوقت.

لهذا أجدني أثقُ بصدقِ كلماتِه حين أخبرني بأنّه شعر بالارتياح

t.me/qurssan

حين وجد نفسه وحيداً. كلّ شيء تركّز في ذاته معتمداً على نفسه. وهنا ينطبق عليه المثل الشهير: «رقبة الذئب عريضة لأنّه ينجز أعماله منفرداً».

تركت لديه الليلة الأولى وحيداً غصّة كبيرة بعد أن تخلّى عنه الجميع. ما إن صفرت رياح منتصف الليل وأطلقت الحجارة أصواتها الغريبة حتى استيقظ بافِل من نومه ولم تغمض له عين، ألقى نظرة إلى الساعة وكانت قد تجاوزت الثانية صباحاً. أشعل لفافة تبغ وخرج إلى العراء.

«لم يسبقْ لي أبداً أن شاهدت هذا الكمّ الكبير من النجوم في السماء وهذا العدد الضئيل من الناس في الأنحاء. ربّما لأنّني أصبحت وحيداً تضاعفت كثافة النجوم. يا لها من حكاية غبيّة! كيف سمحت لنفسي طوعاً بهذه الوحدة؟ هذه الحالة تحثّ على الجنون».

هناك خلف جذع شجرة البلوط الأسود يمكث قطيع المعز بصمت، والعجوز في هذه الأثناء نائم. ذهب بافِل إلى الخيمة الكبيرة وكان على بيّنة من عبثية خطوته، لكنّه ومع ذلك ذهب إلى هناك. أشعل عود ثقاب مدركاً أنّها فارغة تماماً. شاهد فراش النوم والأغطية مكوّمة كما تركها رفاقه ومن خلفها الأجهزة وأدوات العمل. خطر بباله أن يلقي بعود الثقاب في القشّ الموجود عند مدخل الخيمة ليشعل حريقاً خلاباً.

«ما الذي أفعله أنا في هذا المكان؟ هل من المهمّ حقاً أن تُمسحَ هذه المنطقة جيولوجياً أم تبقى هكذا مجهولة لمئة قرن من الزمن؟ لماذا أصرّ على البقاء هنا تحت هذه السماء على الرغم من كلّ ما حدث؟ لمَ لا أجمع أشيائي وأرحل؟! يمكنني الآن أن أمضي بعيداً من دون أن يراني العجوز أو أن تستشعر بنواياي الكلاب؛ ولا يوجد هناك من يؤنّبني. سأخبرهم بأنّ المجموعة قد انفضّت من حولي ولا معنى لبقائي بين الأفاعي والحجارة. عدا ذلك لا يهمّني رأي الآخرين ولا حُكمهم».

كان محقّاً بمغادرة التلّ، ويمكنه القيام بذلك على الفور إذا حرص

t.me/qurssan

على أن يكون منطقياً ومتماثلاً في تصرّفاته. أعتقد أنّ كلّ الأشخاص المتوافقين في تفكيرهم كانوا سيتّخذون قرار الرحيل من دون تلكّؤ. لكن وكما أسلفت، بافِل لم يكن رجلاً تقليدياً، وتصرّفاته لا تخضع للمنطق العقلاني، وأنا شخصياً أشكّ أنّ فكرة كهذه قد خطرت بباله. الحقيقة أنّ سرّ بقائه وحيداً في تلّ الشيطان بقي عصيّاً على الفهم لكلّ معارفه وأصدقائه. ظنّ البعض أنّ ذلك مجرّد تجسيد لحريّته الشخصيّة. أمّا أنا فأعتقد أنّ بافِل قد بقي في الصحراء لعنادٍ كامنٍ في ذاته يصعب تفسيره، كما العجوز يوردو الذي يحضر ماعزه كلّ صيفٍ إلى تلّ الشيطان.

حين سألوه في القاعدة في ما بعد عن أسباب بقائه في التلّ، هزّ بافِل كتفيه وأجاب: «لا أدري!».

عندما أحاول أن أسترجع ذكرى الليلة الأولى التي أدرك خلالها بافِل أنّ الجميع قد تخلّوا عنه، وأن أضع ذاتي مكانه، أشعر بحساسية تلك اللحظة الفريدة. نيزكٌ ما يلمع لوهلة خاطفة يصعب إدراكه.

«ها أنذا هنا في الوقت الذي يمكنني فيه أن أكون في أيّ مكان آخر»، قال بافِل قبل أن يطفئ لفافة التبغ، ثمّ اندسّ في كيس النوم داخل الخيمة ونام.

استيقظ قبل شروق الشمس بقليل، وربّما كتب بضعة أسطر لصديقه كوكو: «أن تصبح المواطن الوحيد في صحراء شاسعة ليس بالقضية المهمّة. يمكنك أن تتخيّل نفسك مواطناً وحيداً في مدينة ما!».

ركض كعادته شبه عارٍ إلى ينبوع الماء ليستحمّ بالماءِ البارد، ثمّ عاد ليصنع القهوة. كان قد أتقن توقيت لحظة استيقاظه من النوم، عشر دقائق قبل شروق الشمس. عندئذٍ وللمرّة الأولى شاهد العجوز يستقبل الشروق. رآه يجلس قبالة الأفق خلف الشجرة محسور الرأس ووجهه نحو الشمس مباشرة. كان العجوز يوردو يبتسم بنشوة غامرة يهزّ رأسه مبجّلاً خيوط الشمس المنبثقة

t.me/qurssan

ويهمسُ بعباراتٍ لا يفهم معانيها غيره. في تلك الأثناء لمعت عيناه وتضاريس وجهه بسعادة كبيرة وأدرك بافِل أنّ العجوز يخاطب قرص الشمس.

عندما اكتمل قرصُ الشمس في كبد السماء سجد العجوز شاكراً، تعمّم بقبّعته وعاد إلى قطيعه. تجمّعت الماعز حوله تثغو وتلعق راحتيه. مدّ العجوز يده في الكيس ثانية وأخرج منه بعض العشب ذا الطعم العذب وقدّمه لماعزه النفيسة من دون أن يتوقّف عن محادثتها: «على مهلك، انتظري! جاء دور ماغا الآن.. ثمّ ناتا، وهكذا.. رويداً.. والآن دور فيتا!»، ردّد العجوز أسماء الماعز التي اختلقها ممسّداً ظهورها الدافئة.

فجأة ترك قطيع الماعز وانطلق إلى نهاية الحظيرة حيث تضطجع بأريحيّة محظيّته «فيدا». لاحظ بافِل كيف ارتسمت على وجه العجوز علامات الحبّ والتعلّق، ثمّ انحنى نحوها بحنان يمرثُ جسدها بعطف، عندئذٍ وقفت فيدا على أطرافها باعتزازٍ ودلال. بدت هذه الماعز مختلفة عن البقيّة ليس فقط بطلّتها الجليلة، لكن بقوامها الجميل الأخّاذ. عيناها ترمقان العجوز بمشاعر إنسانيّة واضحة وبحزن أنثويّ كامن. سيعرف بافِل لاحقاً أنّ فيدا تمتلك أجود الأجراس وأنّ صغارها لم تُذبح أبداً، وتمتلك كلّ الامتيازات الممكنة بصفتها الماعز المحظية.

كوّم العجوز كلّ الأعشاب اللذيذة المتبقّية في الكيس أمامها، لكنّ فيدا تلكّأت قليلاً ولم تسارع بالتهام الوجبة، وسرعان ما هرعت أخواتها لالتهام العشب العذب. انحنى العجوز وحملها بين يديه من دون أن يلتفت لاحتجاج بقية الماعز، مضى بها إلى الحظيرة وأطعمها من خبزه الخاصّ. في تلك اللحظة لاحظ وجود بافِل بالقرب منه، فأشار إليه أن يقترب قائلاً: «لو كنت شاباً لبحثت عن عروسٍ مثلها. انظر إلى دلالها وجمالها!».

«ألا توجد جدّة تؤنسك؟».

«آه!»، لوّح العجوز بيده وأردف: «أربعون عاماً مضى على موتها، عليها الرحمة. كانت أكبر منّي، زوجة شموس فظّة وصعبة المزاج.

t.me/qurssan

أتعرف أنّي أخشاها حتى هذه اللحظة. لم تنادِني مرّة واحدة باسمي، بل كانت تصيح بي دوماً: هيه يا صاحبنا! غريب، كيف يمكن أن تخاطب رجلها: يا صاحبنا، هيه!».

«ألديك أولاد؟».

أشار العجوز إلى الماعز واستمرّ يفتّ الخبز لمحظيّته، وبعد قليل قال: «عليك أن تعرف أن الحرّ سيكون شديداً وقائظاً نهار اليوم».

حين عاد بافِل من نبع الماء، كان العجوز قد مضى مبتعداً مع القطيع والماعز تسير برفقته ببطء مطأطئة رؤوسها، لا تملّ ولا تنقطع عن البحث عن أعواد الأعشاب بين الحجارة بعنادٍ يتماهى مع طبيعة هذه الحيوانات الأليفة، والعجوز يوردو يتهادى خلفها بهيئته المعهودة. لاحظ بافِل أنّ العجوز يطأ الأرض بخفّة كأنّه يخشى سحق شيء ما.

كان الحرّ شديداً في ذلك اليوم كما تنبّأ الراعي يوردو، لكنّ بافِل تحمّله أفضل من الأيام الخوالي. انهمك في العمل طوال الوقت شبه عارٍ بين الحجارة. يحفر الأرض بتؤدة بالفأس، ثمّ يفرغ الحفرة من التراب. يستريح ثمّ يعاود العمل والحفرة تكبر وتكبر.

الأجواء في الأنحاء هادئة وساكنة بصورة غير مألوفة تتيح الفرصة لمن يرغب بالتمرّغ في الآفاق كما يشتهي. هناك في التلّ سماءٌ واحدةٌ وشمسٌ واحدةٌ وشخصٌ واحد. لا أدري أين قرأت عبارة أثيرة «وحدة مخدّرة»، ربّما وفي تلك الساعات تحديداً أصابت الوحدة المطلقة بافِل بالخدر، وعمل برضا ونشوة كبيرة. بعد نهاية هذه الحكاية زارت اللجنة المسؤولة منطقة تلّ الشيطان ودُهشت للغاية لحجم العمل المُنجَز هناك.

عند الظهر استظلّ بافِل بشجرة البلوط، تناول بعض الطعام ثمّ أحضر ماءً بارداً. في تلك الأثناء حضر شابٌّ يافع يمسك برسن حمار لزيارة العجوز. إنّه ليوبتشو الذي تربطه صلة قرابة بعيدة مع يوردو، وهو الذي يُحضر للراعي الطعام والمؤن والتبغ والجبن الطازج بين الحين والآخر، والعجوز يستقبله بحفاوة ويهديه شيئاً

t.me/qurssan

ما في كلّ زيارة.

«إذا أردت أن تبعث برسالة عبر البريد يمكن لليوبتشو أن يفعل ذلك»، قال العجوز للمهندس الجيولوجيّ. فكتب بافِل بضعة أسطر لرئيس القاعدة طالباً منه أن يوفد شخصين على الأقل.

ودّع الفتى الرجلين، امتطى الحمار وغاب خلف التلال.

صفّ العجوز الماعز في ظلّ الشجرة، وحين شاهد بافِل على وشك الانطلاق لمواصلة العمل صاح به قائلاً: «لمَ العجلة؟ استرخ قليلاً! قيلولة الظهيرة تمنحك مساءات هنيئة».

«العمل»، همهم بافِل وعاد أدراجه إلى الحفرة.

شعر بافِل بعينَي العجوز تحدّقان في ظهره طوال فترة ابتعاده. ربّما وللمرّة الأولى اعترف العجوز بواقع وجوده في التلّ.

عاد بافِل إلى خيمته بعد المغيب، بالتزامن مع عودة القطيع بفارقٍ قصير. كان جائعاً للغاية لكنّ الخبز جافّ وغير قابل للمضغ، لذا سارع بطهي بعض المعكرونة، وما إن انتهى من تناول طعامه حتى دخل العجوز إلى خيمته، أجال نظره في أنحاء الخيمة الفارغة وابتسم قائلاً: «لم يتبقّ لديك أحد؟!».

«نعم، جميعهم غادروا، هذا هو الواقع»، اعترف بهذه الحقيقة.

«والآن حان دورك!».

«لأشنق نفسي؟!»، تساءل بافِل ضاحكاً وأضاف: «لا، لن أغادر أيّها العجوز».

نظر إليه يوردو حرداً وقال: «لا أحد يعرف ذلك بالتأكيد».

أراد بافِل أن يعترض، أن يخبره بضرورة الاقتناع بهذه الحقيقة تحديداً، لكنّه أحجم في اللحظة الأخيرة. تمعّن في وجه الراعي التوراتيّ الوقور، ثمّ نظر إلى عينيه العامرتين بالحكمة وفضّل الصمت باحترام. ابتسم العجوز فجأة وقال: «ماذا تأكل يا رجل؟! هذا ليس طعاماً! تعال لنتناول فتّة حساء!».

t.me/qurssan

للمرّة الأولى كان بافِل على وشك أن يعبر مدخل كوخه، لكنّ العجوز أوقفه عند المدخل وناوله فأساً ضخمة: «أترى ذلك الجذع؟ اذهب واحتطب بعض الخشب لنوقد النارا».

انطلق بافِل مطيعاً إلى جذع الشجرة القديمة التي أصابها العفن منذ وقتٍ بعيد. ضرب الجذع بضع مرّات وحصل على قطع صغيرة من الخشب، وحين لوّح بالفأس عالياً وصوّب ضربة قويّة، انبثقت فجأة من الداخل زوبعة ذات رؤوس متعدّدة انفرجت عن الكثير من الأفاعي الغاضبة تهسّ منذرة مندفعة نحوه. قطيع من الأفاعي البيضاء المستثارة. تجمّد بافِل من شدّة الخوف والتقزّز، وقفز مبتعداً لعشر خطوات لا يدري كيف يتصرّف! في هذه الأثناء حضر العجوز، اقترب من جذع الشجرة، ركع بهدوء أمام رؤوس الأفاعي الثائرة، بعثرها بيده اليمنى، جمع الأخشاب بيده اليسرى، وناول الفأس ثانية لصاحبه المنذهل من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. أنجز كلّ ذلك بتركيز شديد وجدّية، ولم تظهر على ملامح وجهه أيّ علامات للسخرية أو رغبة بإلقاء اللوم على بافِل حين دفع بالفأس بين يديه.

انطبعت هذه اللوحة في ذهن الجيولوجيّ الشاب وقد استعادها لأكثر من مرّة في ما بعد. ما يعني أنّه قد استرجع في مخيّلته الحركات التي قام بها العجوز منذ لحظة توجّهه إلى الجذع حتى انقضاء النهاية المثالية بكلّ بساطة.

«هذا كلّ ما في الأمر».

بعد لحظاتٍ من تناوله للفأس من يد العجوز، اعترف بافِل بأنّ الخطوة التي قام بها الراعي درسٌ أكّد فيه تفوّقه المطلق. عثر بافِل لاحقاً على أفعى في فراشه وباح للعجوز عن انزعاجه وعدم ارتياحه حين شعر بها تزحف فوق فخذه.

أجاب الراعي قائلاً: «ليست أفعى، بل روح تبحث عن الدفء».

أشعل العجوز ناراً لغلي الحليب، ثمّ فتّ الخبز في الإناء وقبل أن يبدأا بتناول الطعام، نهض العجوز وقدّم بعض الخبز للكلاب

t.me/qurssan

وأفلت العنان للحمار ليرعى حول ينبوع الماء، ثمّ داعب «فادا» قبل أن يجلس ثانية لتناول فتّة الحليب.

«لن تتناول وجبة شهية كهذه في أيّ مكانٍ آخر»، قال العجوز ماسحاً شاربه وأردف: «أجود أنواع الحليب ينضج في تلّ الشيطان».

كان العجوز يفخر بعزلته ونسكه في تلّ الشيطان، ويتعامل بتعالٍ وسخرية مع باقي الرعاة، كأنّهم حمقى متطفّلون على مهنة الرعي.

أتيا على الطعام كلّه ثمّ نفثا دخان لفائف التبغ. سحب العجوز يوردو نفَساً عميقاً من غليونه فاشتعل التبغ في حجرة الغليون الصغيرة، ولمع وجهه في العتمة شبه المطبقة.

«لماذا حضرت إلى هذا المكان البعيد المنزوي، أيّها الجدّ؟!»، سأله.

صمت العجوز لوهلة وأجاب: «يجب على الراعي أن يسير خلف قطيعه».

التقط بافِل نبرة تطرّفٍ في صوته.

«يبدو أن الرعاة الآخرين لا يبتعدون بقطعانهم بعيداً عن القُرى والمناطق الآهلة»، أضاف بافِل معلّقاً.

«بل ليسوا رعاة أبداً وماعزهم ليست ماعزي»، قال العجوز بحدّة واضحة.

لا شكّ أنّ ذلك قد حدث في تلك الليلة تحديداً. وقف العجوز فجأة، طلب من الجيولوجيّ الشاب أن يتبعه إلى كوخه. فتح الباب وأضاء قنديل الغاز ثمّ أشار إلى الجدران. شاهد بافِل كثيراً من الشهادات المدوّنة بلون ذهبيّ معلّقة، وشهادات أخرى حُفرت الكلمات والنصوص في متنها بخطوط أنيقة للغاية، وقصاصات من الصحف تتخلّلها صور يوردو؛ كما شاهد العديد من صور الماعز وسلسلة من الميداليات الثقيلة.

t.me/qurssan

«أترى كلّ هذا؟ اِقرأ!»، قال العجوز.

قرأ بافِل قصاصات الصحف التي تشير إلى أنّ العجوز يوردو هو الراعي الأكثر شهرة في كامل أنحاء الإقليم، وأنّ منتوجات الحليب والصوف التي ينتجها قطيعه لنحو قرنٍ من الزمان تحقّق أرقاماً قياسية. كما نالت ماعزه الكثير من الاهتمام والميداليات، ويطلقون عليه أيضاً لقب «الحقيقيّ»، «راعي العصر الكبير» و«راعي الرعاة»، وغيرها. قرأ بافِل أيضاً بياناً رسمياً يشير إلى أنّ الحكومة قد منحته درع شرف من المرتبة الأولى تقديراً لجهوده متمنّية له عمراً مديداً لرعاية قطيع ماشيته. في مكان آخر أشار تقرير مسجّل بنبرة مثيرة للشفقة إلى أنّ الجدّ يوردو قد قضى عمره كلّه من أجل ماعزه وماشيته. أعتقد أن بافِل قد ردّد كلمة «كلّه» آنذاك.

كان من الواضح أنّ الاهتمام الرسمي والشعبي الكبير الذي زيّنت مؤشّراته جدران كوخه المتداعية قد تركت انطباعاً عميقاً لدى الجيولوجيّ الشاب.

«منذ ستّين عاماً لم تشهد الكرة الأرضية شخصاً يحسن رعي الماعز مثلي»، قال الراعي ثم طفق يقصّ بفرح حكايات مختلفة عن الماعز والتيوس من خلال تجربته الشخصية، ثمّ أظهر صورة شخصية باهتة يبدو خلالها شاباً ربعاً قوياً يحتضن قرون تيسٍ ضخم.

«لم يُرَ ولم يمتلك أحدٌ مثل هذا التيس، لم أكن بحاجة إلى الكلاب حين امتلكت تسيكو، فقد كان دوماً على أهبة الاستعداد لمقاتلة الذئاب وكان مثيراً للجدل. لم يعتلِ أنثى أبداً علناً أمام الآخرين. كان يصطحبها في مكانٍ ما في الأنحاء كأنّه يرغب أن يسرّ لها شيئاً».

ثمّ أخرج العجوز صورة أخرى وأردف: «وهذه إيڤا».

«إيڤا!»، ردّد بافِل محدّقاً في وجه الماعز الوديعة.

«إيڤا أجمل وأذكى الماعز التي امتلكتها يوماً»، قال العجوز

t.me/qurssan

متحمّساً وأردف: «لست على ثقة من أنّ الناس قادرون على قراءة الأفكار، لكنّ إيقا هذه كانت تفهمني من دون عناء. أحادثها بصراحة وتسمعني أفضل بكثير من أبناء جلدتي، تتمرّغ في حضني وأبوح لها ثانية وأقرأ في عينيها تفهّماً، ودوماً تردّ عليّ بحبّ ووصل. لا، ليست مجرّد معزاة، بل إلهة. لطيفة، حنون وناعمة. سرقوها منّي، أمّا التيس فيرتشو في الصورة أمامك، وهو أكبر من حمار وأصغر من بغل، فقد صنعت من أجله عربة، وكان الملأ يصابون بالدهشة حين يرونه يجرّها ويسير بها بسرعة من دون تلكّؤ. لكنّه في الحقيقة كان صعب المراس ومتمرّداً، لا يرضيه شيء ويكره الماعز، بل ويكرهني ويكره كلّ شيء في الأنحاء، وأخيراً.. انتحر».

«انتحر! هل هذا ممكن؟!».

«قذف بنفسه من فوق تلك الصخرة، هناك حيث يرقد فيلك».

«ربّما سقط من أعلى الصخرة؟».

«أبداً!»، صاح العجوز متيقّناً وأضاف: «بل انتحر. كنت هناك ورأيته كيف ركض بكلّ ما يملك من قوة ثمّ قفز إلى الأسفل. حين وصلت إلى مكان سقوطه لم يكن قد مات بعد، عرفني وسالت الدموع من عينيه قبل أن ينفق».

«هممم.. تيسٌ ينتحر!».

«ما الذي تعرفه عن عالمنا هذا؟! أنت لا تعرفُ شيئاً»، قال العجوز متسامحاً، ثمّ استمرّ يقصّ ذكرياته مع الماعز، كأنّه يتحدّث عن أفراد عائلته وأحبّتِه.

استمع إليه بافِل بمزيد من الدهشة، وندم في تلك الساعات على قراره احترافَ مهنةٍ وضيعة كالجيولوجيا دون الانشغال بمهنة الرعي. أدرك العجوز بالطبع مدى إعجاب الجيولوجيّ الشاب بشخصه ومهنته. فرح وأخذ يكشف له المزيد من أسرار مهنة الرعي، وبين الوقت والآخر يبادله النظرات، ثمّ قال جذلاً: «إذاً، ستبقى في التلّ!».

t.me/qurssan

«لا بدّ أن يبقى أحد أعضاء البعثة أيّها الجدّ».

«نعم.. نعم. من يقدر على البقاء يفعل كما التيس كوكو».

حدّثه العجوز عن وباءٍ انتشر ذات عام في الإقليم أدّى إلى فناء قطعان كبيرة من الماشية، نفق قطيعه بأكمله وكذلك قطعان جيرانه الرعاة في كلّ أنحاء الإقليم، ولم ينجُ سوى التيس كوكو.

«أتدري ما معنى أن يبقى على قيد الحياة في هذه المنطقة برمّتها روحان فقط. كنّا نقف وسط الخلاء وننظر في الأنحاء، لا شيء سوى الموت والعفن. ثمّ انطلق كوكو في أثر الشمس وأنا من خلفه. بقينا نسير ونسير حتى بلغنا هذا المنطقة: تلّ الشيطان، قادني كوكو للمرّة الأولى إلى هنا. أتعرفُ لماذا فعل ذلك؟»، ابتسم العجوز بغموض وأضاف: «لأنّ الوباء لم ينتقل إلى هذا التلّ. عليك أن تعرف أنّ المرض يضلّ الطريق ولا يصل إلى هنا».

انفصلا في وقتٍ متأخّر من الليل، رافق العجوز بافِل إلى خيمته قائلاً: «وأنت، إيّاك أن تخشى الأفاعي!».

«أنا لا أخشاها»، أجاب بافِل.

«قد تستلقي الأفعى إلى جانبك، ستبقى وتبقى ثمّ تذهب مبتعدة. لا داعيَ لطردها، وإذا كنت غير راغب بحضورها فسأطلب منها التوقّف عن الدخول إلى خيمتك»، قال العجوز بثقة.

«وكيف يمكنك القيام بذلك أيّها الجدّ؟!»، سأله بافِل بدهشة.

«نعم، سأطلب منها بكلّ بساطة عدم إزعاجك»، أجاب العجوز.

«وتطيعك؟!»، أردف بافِل مبتسماً.

«طبعاً، كلّ شيءٍ هنا رهن إرادتي»، قال العجوز بحسمٍ وثقة.

التقط بافِل ثانيةً نبض أفكاره المطلقة التي لا تقبل الجدل.

«هيّا، تصبح على خير!»، قال العجوز يوردو وأضاف: «ما دمت قد قرّرت البقاء هنا فسنعيش معاً». ابتعد العجوز في العتمة وللمرّة

t.me/qurssan

الأولى صاح سائلاً: «ما اسمك يا فتى؟».

«اسمي بافِل».

«يا له من اسم! هذا الاسم لا يليق بك. لن أطلق على أيّ تيس في حظيرتي اسماً كهذا». ثمّ أغلق العجوز باب كوخه.

شعر الجيولوجيّ الشاب في ذلك المساء أنّه سيبقى في تلّ الشيطان حتى النهاية. الحقيقة أنّه كان على يقين منذ البداية من قدرته على التحمّل والبقاء، لكنّه احتاج إلى بعض البراهين. والآن، يبدو أنّه قد حصل عليها من أعماق ذاته.

في اليوم التالي بدا التلّ أقرب إلى بافِل من أيّ وقتٍ مضى، كأنّ حياته في الصحراء قد نالت تلك البداية المرتقبة القادرة على خلق العادات الرتيبة. عادةً أن يستيقظ قبل شروق الشمس بعشر دقائق، وأن يستحمّ شبه عارٍ بماء العين البارد. أن يشرب القهوة متصفّحاً روايةً قديمة من أدب الجرائم، ثمّ يسير بعد ذلك في الطريق المألوف للتعرّف على أشكال وهيئات الحجارة والصخور من حوله. أن يحدّد خصائصها وأكثرها أهمية، كما يعتاد المرء البقاء بين الملأ لفترة زمنية طويلة. يبدأ بالتعرّف على ملامح المارّة والتعوّد على رؤية وجوههم. قد تكون قدرته على التعوّد والتأقلم قد منحت بافِل خاصيّة المقاومة لديه، أو كما قال لاحقاً: «عندئذٍ ظننت بأنّ الحياة ممكنة في الصحراء بهذا الشكل».

لم يعد بافِل ليستظلّ عند الظهيرة تحت شجرة البلوط، بل بقي يعمل في الحفر حتى المساء. عمل بجدّ وارتياح.

حين عاد في المساء قال له العجوز يوردو: «حضر لزيارتك رجلٌ يمتطي بغلاً».

كانوا قد أرسلوا له من المركز المزيد من المؤن، ورسالةً يخبرونه فيها أنّ البحث ما يزال قائماً للعثور على مساعدين لإيفادهم إلى التلّ على الفور، لكن يمكنه المغادرة والعودة إلى القاعدة إذا وجد أنّه من الصعب عليه البقاء والعمل وحيداً.

t.me/qurssan

«كتبوا يقولون إنّهم سيرسلون لي بعض الأشخاص للمساعدة»، قال بافِل.

«لماذا؟ أنت لست بحاجة إليهم!»، أجاب العجوز ساخراً.

«لا يمكنني أن أنجز كلّ الأعمال المطلوبة منفرداً».

«وهل تأمل من الرجال الجدد أن يقدّموا لك يدَ المساعدة؟! سيهربون مثل أسلافهم!»، أردف العجوز ضاحكاً.

تفقّد بافِل حزمة المؤن التي كانت تحتوي على عشرين كيلوغراماً من معلّبات الطعام المحفوظ، لحم مجفّف، عصائر فاكهة وغيرها. راقبه العجوز وهو يقف جانباً متّكئاً على عصاه.

«أنت على ما يبدو ستُمضي الشتاء في التلّ؟»، قال العجوز بعفويّة.

«ولمَ لا؟ إذا دعت الضرورة سأمضي الشتاء هنا»، أجاب بافِل مؤكّداً.

سارع بافِل بتحضير العشاء ودعا يوردو لمشاركته. في الوقت الذي ذهب فيه العجوز لقضاء حاجات ماعزه، ثبّت بافِل الطاولة المتنقّلة، أشعل مصباح اللوكس ورتّب أواني الطعام بعناية فوقها.

تأخّر العجوز كثيراً، رآه بافِل يدور حول ماعزه منادياً كلّ واحدة باسمها، يداعبها ويحادثها كأنّه يرغب أن يخبر بافِل: «الماعز أولاً ثمّ نحن».

مدّ يده ثانية في جعبة العشب اللذيذ، فتّ الخبز قطعاً صغيرة في كفّه وقدّمها أمام أفواه ماعزه الرطبة الغالية على قلبه، وكما الليالي السابقة كان كلّ ما يقوم به العجوز خاضعاً لتواتر محدّد، قد يكون نظاماً داخليّاً مشبعاً بنشوة مقدسّة.

أخيراً حضر لمائدة بافِل يحمل معه وعاءً من الحليب الطازج، ولم يتذوّق سوى القليل من العصير المحلّى والمعلّبات ذات الطابع المدنيّ. وبعد قليل قال العجوز: «الرجل الذي حضر على البغل

t.me/qurssan

سألني معاتباً: ألم يتوصّل هذا الرجل إلى قرار؟ قلت له: وماذا تتوقع منه أن يفعل؟ قال الرجل: أنت تعرف أنّ بافِل لم يرجع للقاعدة بعد، وهو يحمّلنا مع هذا البغل مشاقّ كثيرة. أخبرته عندئذٍ بأنّك قد تتخذ قرارك بالبقاء أو الرحيل إلى أيّ مكان آخر».

كان العجوز مسروراً للغاية لأنّه أجاب بطريقة دافع خلالها عنهما الاثنين. كان من الواضح أنّ الراعي قد قبل أخيراً فكرة حضور بافِل وبقائه في تلّ الشيطان، على الرغم من أنّه كان يتعامل معه كدخيل بلا حولٍ ولا قوّة ويستحقّ المساعدة.

في تلك الأمسية أخبره العجوز يوردو أثناء تحضير فتّة الحليب الطازج كيف ضاعت معزاة خلال النهار، كان يسمع صوت الجرس المعلّق في رقبتها في البعيد من دون أن يتمكّن من تحديد مكانها لاختلاط الأجراس المعلّقة في رقاب الماعز.

«ألم تتمكّن من رؤيتها؟»، تساءل بافِل.

«كيف يمكن رؤيتها؟! ظهرها أبيض والحجارة في الأنحاء بيضاء!»، أجاب العجوز.

قاد الراعي قطيع الماعز بعيداً عن المكان، ثمّ عاد ليتمكّن من تحديد صوت جرس معزاته بسهولة.

«لو امتلكت المال لاشتريت جرساً مميّزاً لكلّ معزاة على حدة وللحملان أيضاً، عدا ذلك يتعذّر العثور على مثل هذه الأجراس في الوقت الراهن».

أخبر العجوز بافِل عن المهنيين القدامى الذين كانوا يصنعون من النحاس أصنافاً مختلفة من الأجراس في منتهى الجودة، حتى وإن جمعت قطيعين مختلفين يمكنك تمييز كلّ منها بأنغام أجراسها. كان العجوز متألّقاً مأخوذاً بذكرياته البعيدة، عيناه تهيمان في طرقات الصحراء الشاسعة ووجهه مشرق بفرحٍ ولهفة طفوليّة. همهم العجوز وردّد قائلاً إنّ العالم يسير في طريق غير سويّة ما دام قد اختفى الحرفيون ومعهم اختفت الأجراس الخلابة.

t.me/qurssan

استمع إليه بافِل مذهولاً، لم يتوقّع أن يولي العجوز الأجراس هذه الأهمية الشاسعة.

هكذا أمضى الرجلان وقتهما في التلّ، منشغلَين بأعمالهما خلال النهار. بافِل وحجارته، العجوز وقطيع ماعزه. وفي المساء يجتمعان تحت إكليل شجرة البلوط الأبديّة. يتناولان طعام العشاء معاً ثمّ يطفقان بالحديث. في الأسابيع الأولى من رفقتهما كانت الحظوة للعجوز ليتحدّث ما طاب له ذلك. باح بكلّ صغيرة وكبيرة في حياته. أخبره كيف تعلّق برعاية الماعز منذ نعومة أظفاره، وكيف تيتّم صغيراً معدماً من كلّ شيء باستثناء قطيع والده من الماعز. أخبره بأنّه استمرّ يبحث عن المرعى طوال سنوات في الجبال دون العودة إلى القرية. تملّكته مشاعر الاغتراب عن مجتمعه حتى اسمه لم يكن مدوّناً في سجلات بلدية المنطقة، لدرجة أنّهم نسوا استدعاءه للخدمة في قوام القوات العسكرية، هكذا انقضت المعارك من دون مشاركته. ثمّ عقدوا قرانه على امرأة لعينة شريرة، وسرعان ما طردته من بيت الزوجيّة. لم يعد إلى القرية إلا بعد موتها ليشارك في مراسم دفنها.

«وهكذا، رأيتها مرّتين، عندما تزوّجتها وحين دفنتها».

يفضّل العجوز يوردو أن يمضي كلّ وقته برفقة ماعزه، وكان من الصعب عليه تحمّل حضور الرعاة الآخرين في الجوار، لذا غالباً ما كان يتجنّبهم. يختار عادةً الأماكن التي لا يقصدها أحد، ربّما خوفاً من الذئاب أو الأفاعي.

تحدّث العجوز عن حياته في القرية بفتور وبلا رغبة ولا مشاعر حميمة، كأنّ الأمر يتعلّق بشخصٍ آخر. لكن ما إن يبدأ الحديث عن ماعزه أو إحدى المفضّلات حتّى تدبّ الحياة في أوصاله ويعتمر وجهه بذلك الألق المألوف لدى بافِل المليء بالفضول والسعادة. أو كما أوضح بافِل: «كلّ ما يتعلّق بالحياة خارج إطار قطيعه من الماعز لا يعني له شيئاً».

t.me/qurssan

العجوز يوردو يقسم البشر إلى صنفين: الرعاة الذين يحملون مواصفات متألقة في وعيه، وطبقة أخرى غامضة وواسعة من البشر الذين يعيشون للتمتّع بخيرات الرعاة. وكان يتحدّث كذلك بفائض من المحبّة عن جيل الرعاة القدامى الذين لا يوجد أكفّاء لقدراتهم. هم بالنسبة للعجوز بمنزلة أسطورة حقيقية، يتساوون في وعي العجوز بالأرواح الموجودة في الأدغال والشخصيات البريّة التي يتعذّر ترويضها، ويتساوون كذلك بالظواهر الطبيعية الخارقة. تحدّث العجوز لأكثر من مرّة عن مواصفات الأعشاب الخارقة والسحر الشافي والأرواح الخفية الغامضة. لا أدري كيف تقبّل بافِل في تلك الأثناء إيمان العجوز المطلق بالقدر، الذي وصفه بافِل على النحو التالي: «كلّ ما هو مقدّر جاهز مسبقاً يتدلّى في مكانٍ ما أمامنا ليهوي ويصبح أمراً مقضيّاً».

في إحدى الأمسيات سأله بافِل عما إذا راودته مشاعر الندم والأسف، لابتعاده عن العيش بين ربوع الناس، ولعدم وجود قريب يُحسن العيش والتفاهم معه؟

«لماذا؟ من الصعب أن تفهم الآخرين. أرأيت كيف هرب أصحابك؟ لكنّ ماعزي باقية لا ترحل!»، أجاب العجوز الذي صمت لبعض الوقت، ثمّ أطلق الكلمات الغريبة التالية: «هنا كلّ شيء مختلف أيّها الشاب.. يمكنني التفاهم والتعامل مع الماعز ومع الحجارة ومع الأفاعي.. بل وحتّى مع نبع الماء.. ألا تفهم هذه الحقائق؟!».

«بلى»، أجاب بافِل.

«طبعاً يمكنك تفهّم هذه الحقيقة»، أضاف العجوز: «فأنت تعرفه وهو يعرفك. هو كذلك. الماعز تبحث عن المرعى، النبع لا يريد التوقّف عن الجريان والحجر يريد أن يتحطّم والأفعى تبحث عن الدفء.. لكن ماذا يريد الإنسان؟ من يدري؟ شهدنا في الماضي سنة غير اعتيادية، هطلت من السماء حصىً صغيرة سوداء، عندئذٍ غضب النبعُ من السماءِ واستمرّ يحدّقُ في القبّة الزرقاء وهي لا تغضّ الطرف، عندئذٍ غضب النبع وأخذ يجفّ».

«لا بدّ أنّ الجفاف قد عمّ المنطقة»، قال بافِل.

t.me/qurssan

«آه أبداً. بدأت المياه تجفّ تدريجياً من تلقاء ذاتها.. واختفت.. لم نتمكّن من الحصول على قطرة ماء واحدة في كلّ أنحاء تلّ الشيطان. كان الوضع صعباً للغاية، الماعز تتغو من شدّة الحرّ والعطش وقد لفحت الشمس القوية وجوهها. لم تعد قادرة على السير، ظروف في منتهى القسوة، كلّ هذا بسبب حصى الصحراء السوداء الدقيقة. عندئذٍ جلست فوق فوّهة النبع طوال ثلاثة أيامٍ بلياليها، أحدّثه وأرجوه وأرجوه وأرجوه. قلت له إنّ السماء غير ضرورية لاستمرار الحياة، لكن لا حياة من دون النبع. أخيراً ومع نهاية الليلة الثالثة، سمعت صوت ضجّة في عمق النبع، ضجّة. عندئذٍ شاهدتها للمرّة الأولى. أخيراً ظهرت أمامي!».

«من؟»، سأل بافِل بدهشة.

«الجنّيّة!»، صاح العجوز يوردو، وأضاف: «وجهها أبيض كحجارة التلّ ورموشها سوداء معقوفة وجدائل شعرها من الحرير.. ابتسمت لي عيناها بحزنٍ وأسى، ثمّ طفرت المياه منهما، عندئذٍ سمعتها تقول: اِشرب يا يوردو، اِشرب من حزني لتروي ظمأك! وأنا انحنيتُ وشربت من أوّل الماء المالح، وهي غطّت رأسي بجدائلها بحنوّ وأخذت تلاطفني، وفي الأثناء ارتفع منسوب الماء في الحوض أكثر وأكثر حتى امتلأ وفاض إلى الخارج. منذ تلك الحادثة وفي هذا التوقيت تحديداً أمضي الليل كلّه عند نبع الماء وهي تظهر لي.. في مثل هذه الليلة وحسب».

«ولكن كيف تظهر؟»، قاطعه بافِل.

«هكذا، تخرج من وسط الماء، تبتسم لي، تلاطفني بجدائل شعرها ثمّ تختفي. وحدي أنا أراها، لا يمكن لغيري أن يراها أبداً. أتدري؟! كم هي فريدة ونادرة هذه المياه! عالجت بها كثيراً من المحتاجين».

عرف بافِل عندئذٍ أنّ للنبع يوماً خاصّاً يحضر فيه الناس إلى تلّ الشيطان للمشاركة في هذا الاحتفال.

«بعد ثلاثة أسابيع سيحلّ اليوم الموعود، عندما يكتمل قرص

t.me/qurssan

القمر بدراً»، أردف العجوز.

«همم، لا يمكنني أن أتخيّل تلّ الشيطان مكتظّاً بالبشر. لماذا يأتون؟ هل هذه عادة وتقليد؟ أم أنّهم يحضرون من أجل المياه حقاً؟!».

ابتسم العجوز بحزن: «يأتون لشرب الماء واللعب فوق النار حفاة. منذ بدء الخليقة وهذا النبع يكره النار، لذا تراهم يحضرون إلى هنا لدكّ النيران وطمسها لتجاوز الخوف منها. كلّ من يدوس النار يحوز على قوى النبع الكامنة، النبع يمنح الحياة والنار تخطفها».

كلمات العجوز تدعو للعجب، يجدها بافِل غريبة للغاية، ملأى بمعنىً بسيط وواضح. النبع هو البداية، النار هي النهاية.

«يحضرون إليّ في التلّ ويخبرونني بكلّ شيء، يعترفون بكلّ ما لديهم»، أردف العجوز.

«ولكن لماذا أنت بالذات؟».

«لأنّهم يؤمنون بأنّني أرفع مكانةً منهم»، أجاب العجوز وأضاف: «يعرفون بأنّني أتحدّث مع الحجارة وأخاطب الأفاعي وشجرة البلوط أيضاً. وأكلّم الشمس وأعرف أشياء صغيرة وعابرة أكثر من أيّ واحدٍ منهم. يأتون مشبّعين بالحزن والأسى، أشعر بالشفقة عليهم وأستمع لشكواهم. عالم تسوده الفوضى».

«وأنت ماذا تقول لهم؟»، سأل بافِل بفضول.

«أقول لهم إنّ الأشياء أبسط بكثير مما يعتقدون»، ثمّ رفع العجوز صوته وقال بحزم: «خذْ قطيعك وامضِ خلفه! كلّ واحدٍ معنيّ بمرعى قطيعه».

نعم، هذه هي العبارة التي قالها العجوز ولن ينساها بافِل طيلة حياته: «كلّ واحدٍ معنيّ بمرعى قطيعه».

عرف بافِل أيضاً أنّ الدقائق الخمس عشرة التي يمضيها العجوز يوردو كلّ صباح مقبلاً بوجهه تجاه الشمس المشرقة هي طقوس

t.me/qurssan

ومناسك متوارثة من الأجداد المعلّمين الرعاة. حياة العجوز بصورة عامّة ملأى بالطقوس والسحر والأسرار. هو لا يؤمن بالخالق ولم تطأ قدمه يوماً كنيسة. بدلاً من ذلك يؤمن بآلهة كثيرة يخشاها ويقدّسها بإخلاص.

في رسالة بعثها لصديقه كوكو تحدّث بافِل بالتفصيل عن العجوز يوردو: «العجوز وثنيّ خالص، لا يمكنك أن تتصوّر ما يعني ذلك. يبدو أنّ أكبر مسبّبات تعاستنا هي توجّهنا الكامل للمسيحية وانعدام الفرصة للعودة نهائياً إلى عصر الوثنية. أصدُقُكَ القول يا أخي، حسدتُ العجوز لكلّ تلك الحوريات ومصّاصي الدماء وآلهة الصوف والحليب وإلى غير ذلك من السحر الذي يثري حياته. أعتقد أنّها تحمل الكثير من الصدق والحقيقة، لأنّه، وكما قال يوردو: الإنسان طفل، يعيشُ طفلاً ويموت طفلاً».

ثمّ يبعث برسالة أخرى: «العجوز مثقّف بالفطرة، يمتلك أفكاراً حيّة وخيالاً واسعاً. كلّ شيءٍ لديه متناسق لدرجة أنّ أمسياتنا تحت شجرة البلّوط تبدو كأنّها عروضٌ مسرحيّة وهو ممثّلٌ محترف. يدخّن بشراهة ولا يغادر الغليون فمه أبداً. لا يمكنني أن أتخيّل وجهه من دون غليون. يتحدّث دوماً بهدوء ويصمت على مهل كأنّه يستمتع بكلماته، ودوماً على ثقة كاملة من صحّة وصدق ما يقول».

تكوّنت لديّ فكرة عامّة بشأن شخصية بافِل، لذا تراني غير مندهش من تبجيله لوثنية العجوز يوردو، لكنّ من المؤكّد أنّ الأمر الذي لفت أنظاره بقوّة هي تلك البراءة النقيّة التي تميّزت بها وثنيّته. بافِل كان مبهوراً من الوحدة المتكاملة لحياة العجوز.

«كلّ واحدٍ معنيّ بمرعى قطيعه».

تعرّف بافِل إلى الكثير من العادات والتقاليد الوثنية العريقة لأهالي المنطقة قبل حلول ذلك المساء الذي لن ينساه أبداً، لأنّه ترك لديه انطباعاً يصعب نسيانه. لم تكن تلك المناسبة مجرّد حديث عن العادات التي يمارسها الآلاف حول العالم، بل معايشة وثنية حقيقية.

t.me/qurssan

لاحظ بافِل مع ساعات الصباح الباكر أنّ الأحواض والأماكن المحيطة بنبع الماء قد نُظّفت بعناية، لكنّه سرعان ما غادر إلى منطقة الحفر. كان قد نسي حكاية العجوز المرتبطة بظهور الجنيّة في الليلة الأولى من اكتمال البدر.

ازدادت دهشته حين عاد في المساء وشاهد عدداً كبيراً من الناس قد تجمّعوا حول الحوض وشجرة البلوط. كان قد حضر بضعة آلاف للمشاركة في الاحتفال. حضروا مشياً على الأقدام يمتطون الحمير والخُصُن حسب التقاليد المتبعة. بعضهم سافر طوال الليل والنهار للوصول إلى تلّ الشيطان. بدا كأنّه يرى في وجوههم انعكاس ذلك الوهيج المتزمّت الذي أضاء وجه العجوز يوردو، حتى الأطفال تعاطوا مع هذه الجمهرة البشرية بتبجيل واضح.

أشعلوا ناراً هائلة بالقرب من جذع شجرة البلوط، وقد أحضر الأهالي معهم الكثير من الأخشاب الجافّة التي سيأخذون رمادها معهم حين مغادرتهم. بحث بافِل عن العجوز يوردو لكنّه لم يجده، فقد كان في تلك الأثناء يجلس بقدسية تمهيداً للقاء الجنيّة، التي ستكشف له وحده عن وجهها. الصمت المخيّم ليس مألوفاً ويبدو مصطنعاً كأنّ الجمع يعيش لحظة مصيرية متوقعة. ذهب بافِل إلى خيمته لتناول طعام العشاء، ولا أحد يدري لماذا امتعض ولم يرُقْه وجود هذه الحشود في الصحراء، ربّما لأنّه شعر بأنّه غريب ومختلف عنهم. كان الظلام قد أوشك على الحلول حين ارتفعت أصوات ضربِ الطبل. خرج بافِل من خيمته وشاهد في الأسفل عند النبع كوكبة من راقصي الدبكة مستثارين نساءً ورجالاً يرتدون ملابس فولكلورية قديمة، كلّ منهم يمسك بيد الآخر ويرقصون بخطواتٍ متناغمة، تقودهم سيدة عجوز، شعرها طويل وجسدها رشيق. جنيّة حقيقية، تتقافزُ بطاقةٍ لا تنضب، تهزّ خصرها، وفمها خالٍ من الأسنان، وشعرها الأبيض يتطاير ولا يوجد في رأسها شعرة سوداء واحدة. اقتربت كوكبة الراقصين من أحد أطراف هالة النار الكبيرة على وقع ضربات الطبل. جميعهم يتقنون جيّداً حركاتٍ مدروسة، يهتزّون كموجة واحدة متماسكة، تندفع نحو النار تارة ثمّ تبتعد تارة أخرى.

t.me/qurssan

ثمّ اقتربت من الجهة الأخرى من النار كوكبةٌ أخرى من راقصي دبكة الفولكلور العريقة، يرتدون ملابس رائعة، ويضعون على وجوههم أقنعة كبيرة زاهية تماهي حيوانات غريبة يجهلها بافِل ولا يعرف شيئاً عنها. بدت الأقنعة تحت وهج النور المنبعث من النيران مخيفةً للغاية. أدرك بافِل أنّ الكوكبة الأولى من الراقصين بشر، والثانية آلهة.

احتاجت المجموعتان إلى قرابة ساعة من الزمن لتقتربا من النار، ثمّ تبتعدان، وفي كلّ مرّة يقتربان من النيران أكثر وأكثر. أخبره العجوز يوردو لاحقاً أنّ هذا التقليد يهدف لإخماد النار نزولاً عند رغبة نبع الماء.

بحث بافِل عن الراعي العجوز طوال فترة انعقاد الدبكة على وقعِ الطبل. وجده أخيراً جالساً حاسر الرأس عند جذع شجرة البلوط وقد اتّخذ هيئة كاهن حكيم مسنّ، وانعكاس وهج النيران يتراقص في معالم وجهه، يحمل بيده الغليون متأمّلاً الفضاء أمامه بغرابة، وعلى الرغم من أنّ عينيه كانتا تحدّقان بوجه بافِل إلا أنّه في الواقعِ لم يلحظ وجوده.

تجمّعت النساءُ حول العجوز، عندئذٍ شاهد الجيولوجيّ وجوهَ نساءٍ قرويّة تآكلت من وقع البؤس والفاقة، تقترب بوقار وتبجيل من العجوز الواحدة تلو الأخرى، يقتربنَ منه على بعد خطوتين مطأطئات رؤوسهنّ ويطرحن السؤال تلو الآخر.

توقّف بافِل ليستمع هو الآخر لأسئلتهنّ.

اقتربت من العجوز عروسٌ شابّة عيناها ملأى بالدموع وهمست: «جدّي، زوجي هرب مع أخرى.. ماذا أفعل يا جدّي؟!».

«ألديكِ أطفال؟»، سأل العجوز متجنّباً النظر إليها.

«نعم، لديّ أطفال».

«اعتني بأولادك يا امرأة، لا تنتظري عودته بلَوعة! سيعود حين تتوقّفين عن انتظاره. لا تبحثي عنه، ولا تقتفي أثره وإيّاك أن

t.me/qurssan

تذكريه، وسيعود!».

تحدّث العجوز يوردو بهدوء وثقة كبيرة بالنفس، مذكّراً بافِل بالإله الذي جاء إلى الأرض ليمنح السكينة والعدالة للآخرين.

«أيعود يا جدّي؟!»، سألت المرأة بنبرة مفعمة بالأمل.

«يعود عندما تنسينه بالكامل».

انحنت المرأة أمامه وابتعدت لتحلّ مكانها أخرى أكبر منها سناً.

«جدّي، ابني أُودع السجن بريئاً!»، سألته المرأة بقلق.

«وبريئاً سيغادر السجن يا امرأة»، قال العجوز وعيناه متعلّقتان بلهب النار.

«هل يغفرون له يا جدّي؟».

«لا، لن يغفروا له، لكنّه هو الذي سيسامحهم ويغفر لهم»، ثمّ أضاف كأنّه يحدّث نفسه: «هذا هو المجرى الطبيعي للحياة، الذئاب تأكل الضأن لكنّ الضأن لا تأكل الذئاب».

امرأة ثالثة أرادت أن تعرف حقيقة مرض ابنها، ورابعة تساءلت عن إمكانية حملها، وخامسة...

استمرّ العجوز بالإجابة عن أسئلة النساء بهدوء وبسرعة بديهة، تهيّأ لبافِل أنّ الأجوبة منطقية للغاية وأنّ الحضور يتفهّمها بطريقة ما ويتقبّلها، ثمّ يغادرون بعد ذلك الواحد تلو الآخر والسكينة تعمّ نفوسهم.

كلّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيّته.

الأجواء في المنطقة مظلمة وفي الأفق سبح بدرٌ أصفر هائل، شقّت الأجواء في تلك الأثناء أصواتٌ كأنّها صراخٌ صادر عن آلات موسيقية غريبة. لم يرَ بافِل طوال حياته مثل هذا النمط من الصفّارات التي تطلق أصواتاً شبيهة بصراخ البشر.

فجأةً اندفعت المجموعتان الموجودتان إلى الأمام حول النار التي

t.me/qurssan

كانت قد انطفأت منذ وقتٍ بعيد، ولم يتبقّ سوى دائرة الوهج الأحمر الكبيرة، والراقصون يحملون بأيديهم مشاعل وأخشاباً مشتعلة، ثمّ اقتحموا الجمر الحارّ. شاهد بافِل أقدام النساء والرجال الحافية تدقّ الفحم المشتعل ووجوههم متألقة غاشية. قادت المجموعة في البداية تلك المرأة العجوز المخيفة ذاتها، التي بدت بشعرها الأبيض المنسدل كساحرة حقيقية لا تتوانى عن ردّ أيّ واحد يحاول مغادرة دائرة الجمر. عيناها تلمعان بجنون، وبين الوقت والآخر تفتح فمها الخالي من الأسنان صارخة. هكذا استمرّ الراقصون يتقافزون حتّى الإعياء ومن حولهم تتراقص أقنعة الآلهة المخيفة.

المهرجان في منتهى الروعة ويصعب توصيفه. تهيّأ لبافِل أنّ كلّ الوجوه ناصعة بصفاء الكريستال، تحمل تقاسيم متشابهة، كأنّهم قد تخلّوا عن كلّ ما يخصّهم ليُبقوا في ذواتهم على صنوان الآخرين ونظائرهم. كأنّهم جميعاً في الواقع محتجَزون ورهن روحٍ واحدة.

يرتفعُ صوت الطبل والزمامير تصيح، الناس والأرواح تتقافزُ تحت سماء تلّ الشيطان.

«لوحةٌ في منتهى الجمال والجنون. أصدقك القول وكان بودّي أن أرقص معهم. أيمكنك أن تتخيّل كلّ هذه الأقدام العارية فوق الجمر ورائحة شيّ اللحم الحيّ، وتلك الوجوه التي لا تعترف بالألم غارقةً في أفكارها ومبادئها الخاصّة؟ اعتقدتُ في تلك اللحظة أنّهم مقبلون على حرقِ أنفسهم. يا له من أمرٍ مروّع!». هذا ما كتبه بافِل لكوكو في إحدى رسائله.

أنهى العجوز يوردو الذي كان جالساً تحت شجرة البلوط الحفل الناريّ قائلاً بحكمة: «اذهب إلى النار لتكتشف القوّة، اذهب إلى النار لتكتشفك القوّة!».

تذكّر بافِل طويلاً تلك المرأة المتقافزة ذات الشعر الأبيض المسدول والتعابير المتحجّرة للراقصين الحفاة. كانت ليلةً وثنية خلّابة بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى.

t.me/qurssan

في اليوم التالي، تساءل الجيولوجيّ الشاب عن حقيقة ما حدث في الليلة الماضية وقد اختفى الجميع ولم يتبقّ سواهما. زالت كلّ آثار الاحتفال الصاخب باستثناء الدائرة السوداء التي خلّفها الحريق.

في بداية حياتهما المشتركة في التلّ لم يُظهر العجوز أيّ فضول بشأن الحياة الشخصية لبافِل. كأنّ هذه الحياة لم تكن يوماً ولن تكون. وفي كلّ مرّة يحاول فيها بافِل أن يذكر شيئاً أو يروي حدثاً عايشه في سنوات الدراسة، يبتسم العجوز برأفة وتفهّم من دون أن يعيره أدنى اهتمام. لم يستَأ بافِل من تجاهل العجوز وتحذيره لعدم الرغبة بالاستماع لذكرياته الماضية، من البديهيّ ألّا يهتمّ كبار السنّ بسيرة حياة الشباب، لكن هذا الواقع حرم بافِل من المتعة ومن عادة قصّ الحكايات كما يحلو له غالباً.

«كانت لديّ رغبة كبيرة أن أقصّ عليه حكاية ما، لأرى ردّة فعله وكيف سيتقبّل ذلك. كنت على قناعة من أنّ الأمر مثيرٌ للغاية». مجدّداً باح بافِل لصديقه كوكو في رسالة لاحقة.

بعد انتهاء الحفل المائز حول دائرة النار، استمرّت الحياة برتابتها المعهودة في تلّ الشيطان، واستمرّت لقاءاتهما كلّ مساءٍ تحت شجرة البلّوط، يتناولان العشاء والتبغ ويتحدّثان مطوّلاً. أحياناً يفترقان مبكّراً وقد يواصلان السهر لوقتٍ متأخّر في أمسيات عديدة.

القطيع يعيش حياته المعهودة، والعجوز يوردو يقصّ على الشاب ما حدث خلال النهار، ويَصف بالتفاصيل المملّة خصائص كلّ معزاة على حدة، مبدياً دهشته من ممارسات الحيوانات الأليفة والطبائع المتنوّعة للماعز والماشية.

بقي بافِل في بادئ الأمر مبهوراً ومفتوناً من العالم الجديد الذي بدا فيه الماعز متماهياً بالكامل مع مفهوم «الإنسان». وكان على قناعة من صعوبة إيجاد فوارق جوهريّة في تلّ الشيطان ما بين الإنسان والماعز.

t.me/qurssan

في إحدى الأمسيات، أحضر العجوز يوردو تحت شجرة البلوط معزاته المفضّلة ماغي وقال: «هذه اللعينة كثيرة التقزّز، ترفض الذهاب إلى مكان قصدته معزاة أخرى قبلها، وتجوع وتجوع، لولاي لماتت جوعاً. هيّا يا ابنتي ماغي، هيّا!».

فتّ العجوز الخبز وقدّمه لها، ثمّ أضاف قائلاً: «في البداية ظننتُ أنّها مسحورة وأنّ الطائر يخدعها...».

«أيّ طائر؟».

«هناك طائرٌ خفيّ يتقن فنون الخداع، يحضر إليك ويخدعك. قد يُحضر لك الماء لكسب ثقتك، ثمّ تلحق به وتسير وتسير لتنال مزيداً من الماء دون طائل. قد يخادع الماعز بتقديم الأعشاب، وتسير الماعز مجدّداً تسير ولا أعشاب. وقد يخادع بإنشاد أغنية، يخدعك ويخدعك ويقودك بعيداً، بعيداً.. ليتركك وحيداً.. وحيداً بالكامل، ولا تقدر بعد ذلك على العودة أبداً. لن تتمكّن من العودة أبداً. هذا الطائرُ خدع ماعزي أكثر من مرّة».

«وهل يمكنه مخادعة إنسان؟»، تساءل بافِل مبتسماً.

«أهاها! لقد حاول لأكثر من مرّة خداعي، لو كنت شاباً لمضيت خلفه، من يدري؟ لكنّي لو فعلت ذلك لما تمكّنت من العودة... لا مجال للعودة، خذْ حذرك!».

أطعم العجوز العنزة وأعادها بعد ذلك إلى الحظيرة. في أمسية أخرى غضب من «فيتا» لنهمها المفرط بعد أن التهمت على عجل كلّ الأعشاب الشهية الطازجة، ولم تتمكّن بقية الماعز من تذوّقها، وغالباً ما تزعجه في الحظيرة لتحصل على الخبز قبل بقية القطيع.

«داهية ومحتالة، أدهى من مختار!»، قال العجوز.

استمرّ بافِل يستمع إليه بضجر واضح. تراجعت لديه النشوة العارمة ورومانسية حياة الصحراء ورعاية المواشي. عدا ذلك استمرّ العجوز بتكرار حكاياته في المراعي المرّة تلو الأخرى.

t.me/qurssan

القصص ذاتها، والوصايا التي بات يعرفها عن ظهر قلب: «يجب السعي مع القطيع بحثاً عن المرعى الطيّب اللذيذ، يجب الحفاظ على سلامتها وإعادتها إلى الحظيرة وحلبها. يمكن للراعي أن ينال الكثير من الماعز إذا اعتنى بها جيّداً. الماعز تمتلك هي أيضاً روحاً على الرغم من عدم قدرتها على الكلام».

مع مرور الوقت فقدت حياة الرعي المسالمة المتوحّدة الجميلة ألقها المعهود. يبدو أنّ تلك الحياة باتت تفتقر للكثير لتبقي على جاذبيتها وسحرها تجاه الجيولوجيّ الشاب، والحفاظ على حضوره الروحاني والفيزيائي.

تملّك بافِل شعورٌ قويّ بالحنين لكلّ ما تركه خلفه في وارسو خلال الأيام الأخيرة من وجوده في التلّ. وفي وقتٍ لاحق قصّ بافِل تفاصيل ما عايشه في أحد تلك الأيام الغريبة هناك. كان وحيداً ما بين أكوام الحجارة بالقرب من الحفر الكبير الطويل المتنامي، الأجواء حارّة للغاية والتلّ يذكّر ثانية بأنّه فرنٌ مشتعل. جلس بافِل عند طرف الحفر وقد شعر بالتعب إثر محاولته إخراج حجر كبير.

في تلك اللحظة سمع تلك الأصوات المألوفة، هناك بالقرب مرّت حافلة ترام كهربائية وقد أطلقت العنان للصافرة، وسمع كذلك صافرات وزمامير العربات والمحرّكات الهادرة، ومرَّ حشدٌ كبيرٌ من البشر وسمع أصواتاً متقطّعة جميعها تتحدّث باللغة البولندية.

انتفض بافِل ووقف على قدميه، فوجد المدينة أمامه. مدينته المشمسة الرائعة المتألقة بخضرة الربيع ومياه النوافير البيضاء الخلابة وألوان القرميد والدعايات المضيئة والشوارع والمباني المألوفة. كان على بعد بضع خطوات فقط من المدينة منطلقاً نحوها على عجل لاهثاً وصدره يحترق من شدّة العطش. كان على وشك أن يلمس رذاذ النافورة المندفع للأعلى، ويكاد يقترب من ظلال الحدائق البديعة. سار في طريقه إلى الأمام وعيناه مشرعتان والمدينة بالقرب منه ولا يقدر على لمسها، كما الصحراء من خلفه بعيدة لا تنقطع. استرجع بافِل المدينة بكلّ تفاصيلها

t.me/qurssan

حتّى صاح بأعلى صوته بالبولندية، ثمّ انتصب ليلوّح للفتيات الواقفات على الشرفات وهنّ يردُدنَ التحية ويسرعن الخطا، ويركض حتى كادت ساقاه تنطويان تحته من شدّة التعب والإرهاق، ثمّ وقع مغشيّاً عليه فوق حجارة تلّ الشيطان.

هناك عثر عليه العجوز يوردو، رشّ وجهه بالماء وصاح: «الطائر الخفيّ. أخبرتك أن تحذر هذا الطائر!»، ثمّ ساعده ليجلس تحت شجرة البلوط.

الظهور المفاجئ والاعتباطي لوارسو هزّ كيان بافِل، فعاد بمخيّلته إلى الوراء لسنوات قليلة ماضية، وداهم حياته ومخيّلته بمزيدٍ من فيض اللذّة المؤلمة. حتى التفاصيل التي مرّت بصورة عابرة في الماضي برزت في ذاكرته الحيّة كأنّها قد وُلدت للتوّ بمعنىً جديد وبحيوية عذبة. كما استدعى وعيه وجوهاً وأحداثاً عديدة بانتقامٍ حاقد لغيابه، وسرعان ما استرجع تلك اللحظات الجميلة من ماضيه القريب. انبعثت الحياة في اللوحات الكامنة في ذاكرته، فجعلت من تسكّعه وتيهه في تلّ الشيطان درباً من التفاهة والجنون. باتت تفصله بضع ساعات فقط لاتخاذ قرار حاسم لاحقه طويلاً للهرب من كوابيس التلّ. كان يجلس بالقرب من العجوز يوردو وفي الوقت ذاته موجودٌ في وارسو، كان موجوداً في وارسو ويجلس في الوقت ذاته بالقرب من العجوز يوردو.

أظنّ أنّ هذا طبيعيّ ومفهوم، لأنّ بافِل انتقل خلال ثلاثة أيام فقط من وارسو إلى تلّ الشيطان، مع أنّه عاش في العاصمة البولندية ستّ سنوات متواصلة تخلّلتها لحظات أبديّة ثريّة وجامحة تزهو بعنفوان الشباب. كثيرون يرون أنّ الذكريات تؤثّر على الإنسان بقدرتها على النسيان. لديّ رغبة في أن أدرك أنّ هذا الإحساس غريبٌ عنه، وهو لا يأخذ بالحسبان خاصيّة الذكريات وقدرتها على البقاء في عالم النسيان. أمّا معاناته في تلك الأيام فتولّدت تحديداً من ضرورة بقائه في صحراء تلّ الشيطان بدلاً من ممارسة الحياة في أجواء تلك المدينة الصاخبة.

t.me/qurssan

«إذاً، تمكّنت أنتَ من رؤية المدينة؟»، سأله العجوز يوردو حين عاد بافِل لوعيه.

«نعم، رأيتها كأنّها حقيقة وواقع»، أجاب بافِل.

«همم، هذا الطائر اللعين يتقن المخادعة مستخدماً المدن أيضاً». ابتسم بافِل. ثمّ أردف العجوز: «أعتقد أنّ الوقت قد حان لرحيلك».

«لديّ ما أنجزه بعد»، أجاب بافِل.

«هل بقاؤك هنا من أجل العمل؟»، تساءل العجوز.

«لا أدري، لا أدري أسباب بقائي هنا، لكنّي سأرحل بالتأكيد».

«إلى أين؟».

«إلى المدينة».

بدا وجه العجوز ساخراً، وغالباً ما يتعامل مع ماعزه فحسب بشيء من الاستعلاء.

«وكيف لك أن تعيش في المدينة؟ لا أدري كيف يمكنك أن تترك كلّ هذا وتذهب لتعيش في مدينة ما!».

«أنا هنا ويمكنني البقاء هناك أيضاً».

«ذهبت إلى المدينة ثلاث مرّات. تصعب الحياة في المدينة، الحياة هناك لا تروقني. بشر وبشر ولا توجد في الأنحاء ماعز»، أردف العجوز.

حاول بافِل أن يوضّح له بعض مشاعره وأفكاره.

«أنا كبرت في المدينة وفيها أكملت دراستي وهناك أصدقائي. أنا أعملُ هنا في هذه اللحظة لكنّي أفكّر طوال الوقت بالمدينة. قبل قليل كنت أعتقد بأنّي متوجّه إلى بار الطلاب. في هذا التوقيت من النهار أذهب غالباً إلى بار الطلاب، ولويزا النادلة على وشك أن تغرّد: يا له من يوم جميل يا بافِل!».

t.me/qurssan

نظر إليه العجوز بفضول وضحك.

«سيرسل لك الطائر الخفيّ لويزا أخرى، سترى»، قال العجوز.

«لويزا هذه عذبة وطازجة كأنّها فتاة من الثلج. كانت دوماً تركن ثدييها على حافّة البار لتراقب الشارع. تنتظر حضور أميرها على حصانٍ أبيض، لكنه لا يحضر ولا يحضر. يا له من يومٍ جميل!»، أردف بافِل.

في هذه الأثناء حشا العجوز غليونه بالتبغ ووجّه نظرات جليّة إلى حمرة الأفق، وبدا من الواضح أنّ كلّ ما تفوّه به بافِل لا يعنيه من قريب أو بعيد، وقال: «الرياح ستنشط نهار الغد، وهذا يعني أن الأمطار ستهطل في الأسبوع المقبل».

ثمّ وقف وانطلق تجاه ماعزه.

في اليوم الثاني أحضر الفتى على البغل بطاقةً ملونة صغيرة من كوكو. البطاقة رسم لحديقة ملأى بنوافير الماء والمجسّمات، كتب كوكو تحتها: «استحمّ بماء النافورة!».

تمعّن بافِل البطاقة مطوّلاً وابتسم.

«هذه البطاقة من وارسو».

كان العجوز في تلك اللحظة على وشك الحديث عن تأثّر الماعز بأشعة الشمس الحارّة، لكنّه ألقى نظرة على البطاقة بفضولٍ مثير للضحك، أدارها بين يديه وقال: «ليتنا نمتلك كلّ هذه المياه!»، ثمّ استمرّ يتحدّث عن الماعز. أخيراً تمعّن في البطاقة ثانية وأشار إلى أحد المجسّمات الفنية هناك متسائلاً: «ما هذا؟ لا شكّ أنّه أحد أملاك الأثرياء هناك؟!». طرح سؤاله من دون أيّ اهتمام حقيقيّ كأنّه يتحدّث عن أمرٍ عابر.

عندئذٍ شرع بافِل يشرح له طبيعة عمل نوافير الماء الشعبية بسرور. هكذا بدأ حديثه للمرّة الأولى عن وارسو.

في البداية تلعثم بالحديث وبدا غير واثقٍ من نفسه، لوجود

t.me/qurssan

العجوز بجواره، وحذرِه من معالم السخرية المرتسمة على وجه الراعي، وصعوبة المقارنة ما بين وارسو وتلّ الشيطان. كان يخشى أن يتسبّب حديثه وبوحه الصريح بجرح مشاعر العجوز يوردو وتفاصيل حياته في التلّ، كنبع الماء الذي يعني له الكثير وشجرة البلوط وغيرها، لذا توخّى بافِل الحيطة في حديثه. وعندما يفعل ذلك تبدو الحكاية غير مكتملة وغير حقيقية، لكنّه مع مرور الوقت استعاد رباطة جأشه وثقته بنفسه ونبرة صوته السويّة المعهودة. أخذت الذكريات تتدافع تترى واضحة في مخيّلته، ولأنّ بافِل ذكرى لذاته تعايش مع حكايته كأنّها واقع، وكلّما مضى في حديثه بدا أكثر ثقة كأنّه وجد أخيراً أرضاً صلبة تحت قدميه.

ها قد توصّلت إلى أصعب اللحظات التي لن تتكرّر في هذه الرواية، حكايات بافِل وذكرياته في وارسو. لكنّي مهما حاولت لن أتمكّن من وصف تلك الألمعية والجاذبية التي تمتّع بها سرده لتلك الحكايات، والانطباع القويّ الذي تركته لدى الراعي العجوز. وستبقى هذه الحالة إلى حدّ ما عصيّة على الفهم. قبل هذا وذاك عليّ أن أذكّر بقدرة بافِل الفريدة على القصّ والسرد، الأمر الذي يُجمع عليه كلّ أصدقائه. قد تكون قصّتي هذه مجرّد محاولة لإعادة خلق شيء وُلد بصورة تلقائية بمعنى ذاتيّ محدود وتناسق يصعب أن يتكرّر. لذا سأتخلّى عن كلّ المحاولات الأدبية والإبداعية، وسأبذل جهدي لنقل هذه القصّة بدقّة وأمانة، بهدف بلوغ التأثير الساحر الذي حقّقه الجيولوجيّ، سأعتمد على ثقة القارئ وشحذ مخيّلته بشكلٍ أو بآخر.

البطاقة البريدية التي أرسلها كوكو هي الذريعة التي حثّت بافِل على بدء سرد حكاياته عن وارسو. لكنّي على ثقة من قدرته على تحقيق هذه الرغبة ومن دون البطاقة البريدية، لأنّ قصّ الحكايات كان ضرورة بالغة لدى بافِل.

في البدء كان تتابع القصّ تقليدياً وغير جذّاب. شابّ أجنبي يجد نفسه للمرّة الأولى بعيداً عن الوطن، يبحث طوال النهار عن فندقٍ رخيص غير موجود على أرض الواقع، يلتقي في نهاية المطاف

t.me/qurssan

كوكو الذي دعاه للعيش في بيته. ثمّ تحدّث بافِل عن مهنته المستقبلية وعن المدينة.

التزم العجوز الصمت ولم يتوقّف عن التدخين. يبدو أنّ كلمات الجيولوجي الشاب كانت تسير في العتمة وإلى الأعلى تجاه فروع شجرة البلّوط، لتحوم فوق وعي الراعي العجوز كأنّها كيانٌ غريب. لم ينزعج بافِل من صمت العجوز، ومع ذلك استمرّ يتحدّث بانفعال وحيوية وباتجاهٍ أكثر وضوحاً. فجأة قاطعه العجوز يوردو وتساءل: «أخبِرني، هل يحرقون الموتى هناك أم يدفنونهم تحت التراب؟!».

يبدو أنّ هذه المسألة شغلت العجوز يوردو لدرجةٍ كبيرة، استغرب بافِل هذا السؤال. أجاب بما يعرفه عن حرق الجثامين ودفنها، ثمّ استمرّ يتحدّث بلهفة وشغف عن تجواله في شوارع وارسو.

لا أحد يعلم لماذا استهلّ حديثه بتفاصيل العلاقة التي أقامها مع باربرا. قد يكون المجسّم الصخري للفيل في الجوار هو المبرّر لحثّه على ذلك. ولعلّها نوافير المياه في البطاقة البريدية، أو الطاقة الكامنة في هذه العلاقة والمشاعر المرافقة التي حثّته على سردها لتذكّره بها.

كانت أمسية حارّة من شهر تمّوز، جلس كلاهما في أماكنهما المعتادة تحت شجرة البلّوط. العجوز يدير الغليون في فمه للمرّة التالية محدّقاً في حمرة الأفق، وبافِل جلس مضطجعاً على الأرض الصلبة مبتسماً وغارقاً في عمق ذاته، وعلى الأرجح بدأ الحكاية على النحو التالي: «في إحدى الأمسيات كنت وأنا وكوكو (اختلقت هذا الاسم لأنّ لساني لا يحسن نطق الأسماء البولندية) نتسكّع في الشوارع ولا ندري أين نتوجّه. هذا الكوكو شخصية جدليّة مدهشة لا يعرف أبداً ماذا يريد وماذا يفعل وإلى أين يذهب! في الحقيقة هذه أجمل مواصفات شخصيته. هو ينتمي إلى أولئك الذين يرغبون أن يكونوا في أكثر من مكان في الوقت نفسه ويوجدون في العدم. حين يكون وحيداً يبدو عارياً كأنّه بيضة تعيسة، وما إن يجد نفسه وسط شِلّة من الأصدقاء حتى

t.me/qurssan

يمكنك أن تتوقّع منه القيام بأيّ شيء، أن يلعب دور بعوضة أو فيل. يتوق هذا المسكين إلى حدّ الهوس لحشد جمهور من حوله، ليترك انطباعاً لأحد الموجودين. كنّا قد هِمنا على وجوهنا حتى منتصف الليل ولم نحتسِ سوى عبوة بيرة واحدة، حين قرّر أن نزور صديقاً يعيش في منطقة سكنية في الناحية الأخرى من المدينة. انطلقنا مشياً على الأقدام وعبرنا إحدى الحدائق لاختصار المسافة حيث شاهدنا باربرا للمرّة الأولى».

كانا يسيران بمحاذاة جدار مسبح يحدّقان بنوافير الماء في عتمة الليل شبه المطبقة. المياه تغسل المجسّمات بإغراء وكوكو لا يتوقّف عن الحديث.

«يا له من أمرٍ غريب! شعرت بنعاسٍ قويّ طوال النهار، لكن ما إن حلّت العتمة حتى استيقظت بالكامل. العتمة تبعث الحياة والحيوية في وعيي. انظر، انظر!» -صاح كوكو موجّهاً حديثه لبافِل مشيراً إلى المجسّمات في نافورة المياه- «امرأة ترفع يديها إلى السماء وعلى كتفيها تنساب مياهُ النافورة. هذا ليس مجسّماً اصطناعياً بل فنّ طبيعانيّ».

«لا، ليس فناً طبيعانيّاً»، أجابت المرأة المجسّم بصوتٍ أنثويّ واضح للغاية. تجمّد كلاهما من شدّة الدهشة.

«ما هذا إذاً؟!»، تساءل بافِل.

«متعة»، أجابت المرأة المتجسّدة في الماء.

«منتهى الغباء!»، صاح كوكو الذي لا يحتمل مظاهر التجلّي المتميّزة الصادرة عن آخرين سواه، وأردف: «سيقضي المنافقون المصطنعون على هذا العالم. أراهن أنّها تقف هناك وتنتظر شخصاً غبيّاً».

«أصبت. انتظرتكَ منذ وقتٍ طويل»، قالت المرأة المجسّم.

قفز بافِل عن جدار المسبح وولج في مياه المسبح، وفي الأثناء لم تحرّك المرأة ساكناً. كانت شابّة في مقتبل العمر، تمتلك قامةً

t.me/qurssan

متناسقة جميلة للغاية، وقد حدّد لباسها المبتلّ تقاطيع جسدها.

«نعم، لكنّك لم تتّخذي وضعية مثالية».

«هذا صحيح، ليس لديّ رفيق»، أجابت الفتاة.

«ما الوضعية التي تريدين أن نتقمّصها؟».

«أنفسنا. أنا وأنت، أنت وأنا».

تردّد بافِل لوهلة، ثمّ انحنى ووقف على يديه رافعاً قدميه إلى أعلى. أخذ كوكو الموجود عند السور يضحك بصوتٍ عالٍ ليجمع من حوله جمهوراً.

«المواطنون والمواطنات الكرام!»، صاح كوكو كمن ينادي على سلعته في الأسواق: «تعالوا لتروا جمجمة ألكسندر المقدوني في العشرين، في الثلاثين، في الأربعين وفي الستّين من عمره. جمجمة ألكسندر المقدوني في الخمسين من العمر أضعناها في الطريق ما بين ڤيينا وبودابست!».

تجمّع كثيرٌ من الناس ضاحكين، وفجأة عطست المرأة المجسّم وقالت: «من الغباء أن نصاب بذات الرئة بعد هذا الاستعراض».

انسلّ كلاهما خلف جدار المسبح مبتلّين حتى النخاع. أفاد كوكو بأنّه لن يسير برفقة أريكتين مبتلّتين، وسرعان ما اختفى بعيداً عنهما، كما هو الحال مع كلّ من يشعر بالتطفّل وأنّه غير مرغوب به.

حين خرجا تحت نور أوّل عمود إضاءة، شاهد بافِل امرأة ذات شعر كستنائي، تقاطيع وجهها حذقة جريئة وعيناها تبتسمان. هي أيضاً تمعّنته بفضول وقالت بمرح: «أنت فعلاً مبتلّ. غالباً ما تملّكتني رغبة بأن يبتلّ رجلٌ من أجلي».

«بل تستحقّين أن أغرق من أجلك»، أجاب بافِل وقد وجد أمراً طبيعياً أن يتحدّث إليها بصيغة المفرد كأنّهما يعرفان كلٌّ منهما الآخر منذ زمن طويل. وأضاف: «كيف خطر لكِ أن تقفي كنصبٍ

t.me/qurssan

في الماء؟».

«أحسستُ أنّ نافورة المياه ينقصها شيءٌ ما، كأنّها تحتاج إلى كيانٍ حيّ».

«وربّما احتاجَ الكيان الحيّ إلى نافورة ماء»، أجاب بافِل ضاحكاً.

«أنت لا تفهم شيئاً، أردت أن أعيش ساعة من الزمن كأنّي مجسّم يجهل أنّه كذلك، هذا كلّ ما في الأمر ولا شيء سوى ذلك، بل أردت أن أشعر معنى أن تقف في مكانٍ واحدٍ حتّى الأبد»، كانت تتحدّث بثقة كبيرة وبصوتٍ مرتفع لا يقبل الجدل. كان من الواضح أنّ لديها تحفّظات كبيرة بشأن الجميع وبكلّ الأمور التي تدور من حولها.

وفي لحظة ما صاحت قائلة: «هيا نذهب إلى بيتي لنجفّف جسدينا». ثمّ شدّت يد بافِل وانطلقا عبر الشوارع. كانت تحدّثه طوال الوقت بصوتٍ رنّان مستكين بعفوية، وكان بافِل مكتفياً بالاستماع لألحان صوتها من دون أن يبذل جهداً لفهم معنى كلماتها.

وقفت فجأة أمامه، حدّقت في وجهه بنظرة جذلة: «أخبرني بماذا تفكّر الآن؟ هل تظنّني غير سويّة؟ لا شكّ أنّ هذا ما تفكّر فيه؟ أنت أيضاً لا ترغب بأن تفهمني».

«بل أفهمك جيّداً»، أجاب بافِل محدّقاً بعينيها، «تملّكتكِ رغبة أن تلجي مياه النافورة وفعلت ذلك. ما الغريب في الأمر؟! يمكنك أن تصعدي لأجراس كنيسة القديس بيتر لتمتطي الصليب. نعم، يمكنك أن تفعلي ذلك. ما المانع؟».

«وأنتَ ستحضرُ معي؟».

«نعم سأحضر، لا أظنّ أحداً يتخلّف عن حضور هذا المشهد».

ضحكت بسعادة وبدت في تلك اللحظة أكثر جمالاً.

حين طفق بافِل بالحديث توجّه لرفيقه العجوز كمستمع بحكم

t.me/qurssan

العادة. لم يميّز في العتمة تقاطيع وجه يوردو، الذي فضّل الصمت واستمرّ يعبّ دخان الغليون. لم يقاطع حديث بافِل مرّةً واحدة، واعتقد الجيولوجيّ الشاب أنّ العجوز لا يصغي إليه بتاتاً. لكنّ بافِل المأخوذ بسحر مخيّلة الحكواتيّ استمرّ في روايته.

«باربرا». وجد بافِل نفسه في غرفة على السطوح مثيرة للضحك ذات حواف عديدة في الأماكن التي تمرّ بها أنابيب مداخن المبنى مضاءة من جهة السماء. جدران الغرفة وسقفها ملطّخة بألوان مائيـة وزيتيـة، وفـي الأنحـاء مسـودّات للوحـات فنيـة. الظـلال والهيئات تعجّ بالفوضى كأنّها وليدة مخيّلة هاربة ومرهقة وفي الوقت نفسه بسيطة وساذجة بصورة طفولية. تقبّلها بافِل هكذا كما يتقبّل البدائيون العجائب والهيئات المعدنية.

أطلّ من الشرفة المطلّة على المدينة.

قالت له باربرا: «هل ترغب بنزهة فوق أسطح منازل هذه المدينة؟ هل سرتَ يوماً ما فوق الأسطح؟ هذا ترفٌ لا مثيل له».

كان على بافِل أن يلتحف بملاءة حتى تجفّ ملابسه، وفي تلك الأثناء انهمكت باربرا بغلي القهوة. كانت تتحدّث طوال الوقت بنبرة محمومة صادمة قد تعني أو لا تعني شيئاً.

«هل أعجبتك رسوماتي؟ أتريد أن أرسمك؟ أنت كيانٌ بنيّ غامق تشوبه زرقة وبيضاويّ. بيضاويّ إلى ما لا نهاية».

ثمّ أخرجت كوماً من لوحات كثيرة من تحت الطاولة، واستمرّت في حديثها المتوتّر.

«أتعلم بأنّي أكتب أيضاً؟ أكتب الرواية والشعر... أكتب كلّ شيء. الحقيقة أنّني لا أعرف تحديداً ما أكتب، لكنّي على ثقة من أنّ الكتابة عمل رائع للغاية. هل لي أن أقرأ لك بعض كتاباتي؟!».

قرأت له أبياتاً من الشعر حفظها بافِل، وأعاد ترتيلها أمام العجوز يوردو:

شخصٌ ما يصعد السلالم

t.me/qurssan

هل حضر من أجلي؟

أحدهم يقترب من الباب

هل يقصدني؟

شخصٌ ما يتنفّس بثقل

هل حضر من أجلي؟

أحدهم يضغط مقبض الباب

هل يقصدني؟

شخصٌ ما يدفع الباب

ويدخل... هذا أنا ذاتي.

يصعبُ عليّ أن أحكم على طبيعة الانطباع الذي خلّفته تلك الأبيات لدى بافِل، عادةً ما يحاول المرء غربلة الأشياء وتنقيحها وتحديد ما هو مقبول لديه. أعتقد أنّ بافِل قد تقبّل كلّ ذلك باعتباره جزءاً لا يتجزّأ من أسبوع اللهو الذي عايشه.

«من المؤكّد أنّك لن تصدّقني إذا أخبرتك بأنّني أمتلك فيلاً»، قالت له.

«فيل؟»، أجاب بافِل من دون أن تبدو عليه أمارات الدهشة.

«نعم فيل عملاق حقيقي. جلستُ على جبهته عارية وأمضينا نزهة بطيئة في المدينة. يمكنك أن تتخيّل المشهد والكلّ ينظر إليّ؟ المعنى الحقيقي يكتمل بامتلاكك فيلاً». استدارت ونظرت إليه بابتسامة جذّابة. كان وجهها جميلاً للغاية ونظرتها نقيّة لا تقاوم.

بينما كانا يشربان القهوة استمرّت في ثرثرتها تقصّ عليه نزهات وحديثاً مفرغاً من أيّ معنى، خليطاً من الواقع والأحلام. استمع بافِل بمتعة وكان على قناعة من أنّ الخيال لو مُنح جسداً لاختار

t.me/qurssan

جسد باربرا.

نظرت إليه أكثر من مرّة ببساطة ووعي متيقّظ لتقيّم حضوره، وتفكّرت كطفلٍ يسردون عليه قصصاً مضحكة.

أُعجب بها بافِل أكثر وأكثر بطبيعتها التي بدت مصطنعة. اجتذبته كلّ مواصفاتها.

عرضت عليه أن يتلفّعا بملاءات بيضاء ليتنزّها في تلك الليلة فوق أسطح بيوت المنازل. عندئذٍ وقف بافِل بحماس.

«أرجوك لا تذهب!»، صاحت به.

«لم يخطر ببالي قطّ أن أغادر غرفتك»، أجاب بافِل.

«لكنّك مع هذا تعتقد بأنّي لست سويّة ولا عاقلة. أليس كذلك؟».

«وهل هناك من يمتلك كلّ قواه العقلية بيننا؟»، قال بافِل وعانقها.

احتضنت رقبته بيديها وقبّلته. لم يشاهد بافِل سوى بقعٍ غامضة في حدقتي عينيها الكبيرتين الواسعتين. أحسّ بنفَسِها المتسارع القلق الحارق، وخلجات جسدها الفتيّ المضطرب الراغب بالحصول على استحقاقه.

خيّم الظلام في فضاءات وارسو.

كان قد أدرك أنّ الغرفة المضحكة فوق سطح المبنى المليئة باللوحات الغريبة قد أصبحت ملكه.

باربرا أكثر النساء جاذبية ما بين النساء اللواتي التقاهنّ خلال السنتين الأخيرتين، كما كانت تتمتّع بمخيّلة واسعة للغاية. الصفات التي اعتبرها في البداية ذات طابع طفولي كانت في الحقيقة بديهية مشبعة بطيبة قلب. تلك المرأة خليط من الجمال وبراءة الحياة الواقعية وما تجود به عليها مخيّلتها، لذا تبدو الأمور من وجهة نظرها ماتعة وثرية. كان من الواضح أن أحداث حياتها اليومية غير كافية، لذا أضافت عليها ومضات من الخيال. كلّ هذا جاء نتيجة لغريزتها واندفاعها لأن تعيش بشغفٍ

t.me/qurssan

وشقاوة.

ألفها بافِل لدرجة أنّ الأحاديث واللقاءات التي كان يجريها مع الآخرين بعد لقائهما بدت له باهتة مملّة ومقيتة. ومع كلّ لقاء تعايش باربرا حادثة عجيبة غير منطقية وغالباً بحكم المصادفة، تقصّ الحكاية الواحدة باحتمالات مختلفة متناقضة، وعندما يدرك المستمع تضارب أحاديثها لا تشعر بأيّ حرج.

«آه لو تعلم ما شاهدته نهار اليوم. لا، لا يمكنك حتّى أن تتخيّل ذلك»، قالت باربرا.

بافِل يحبّ أن يستمع إليها وأن يراقب اللهو الطفولي المنطبع في تقاسيم وجهها مع كلّ كلمة تتفوّه بها، وحين تربط ضحكتها الطبيعية مع تلك المفتعلة في الوقت نفسه تتحوّل تخيّلاتها إلى حقيقة وواقع متخيّل. كان بافِل يستمتع بحماسها وحزنها المفاجئ من دون أسبابٍ واضحة لشجاعتها المتهوّرة ومخاوفها المروّعة.

يخرجان للتنزّه كلّ مساء. يفضّلان ارتياد نادٍ ليليّ في أحد أنحاء العاصمة. باربرا ماهرة في الرقص، حركاتها فتيّة وديناميكية تتميّز بالقوّة والعنف. أفاد مدير النادي بأنّه لم يشاهد ثنائياً أروع منهما في ساحة الرقص.

تعود باربرا أحياناً لرشدها فجأة، تتجمّد تقاطيع وجهها في تأمّلات جادّة للغاية كأنّ أحدهم قد وضع مصير الإنسانية بين يديها، وتبدأ بحرص بالغ وبمشاعر مسؤولة البحثَ عن مخرج لمصائب البشريّة. مبادراتها مليئة بالمفارقات التي لم يسمع بافِل مثيلاً لها من قبل.

«عليك أن تعرف أنّ الإنسان يكون في أجمل أحواله إذا أنكر ذاته وذاب من أجل الآخرين. صحيح أنّ الذاتية الشخصية قدّمت للناس كلّ ما يمكن منحه. تنتهي الذاتية، لا أحد سيحتاج إليها. الذاتية تقف حجر عثرة لذا يجب القضاء عليها ليندمج الإنسان في الآخرين. لكن كيف يذوب ويندمج فيهم؟ يمكن ذلك بكلّ

t.me/qurssan

بساطة، حين يكرّس نفسه من أجلهم وحين يصبح أداة بين أيديهم. نعم، على الإنسان أن يعيش من أجل الآخرين».

وبعد لحظات معدودة تُتبع بوحها بالسؤال التالي: «لكن أين هم الآخرون؟».

بافِل يتعامل مع حديثها ومعها كدمية حرّة ملوّنة. بدت كلماتها في الواقع مفرغة من أيّ معنى منطقيّ، مجرّد عبارات مشرقة ملوّنة.

وتمضي هي في حديثها من دون عناء.

«أتعرف يا بافِل أنّ الإنسان يولد منقسماً إلى نصفين. ما نراه هو النصف المألوف، أمّا النصف الذي يتعذّر رؤيته فلا أحد يدرك ماهيته. لكن النصفين يبحثان أحدهما عن الآخر طوال الحياة، كما يبحثُ كلّ سؤال عن إجابة».

«وماذا يحدث إذا ما التقى النصفان؟»، سأل بافِل للمشاركة بشكلٍ ما في الحديث.

«يموتان»، أجابت على الفور، وأضافت: «أنت تعرف أنّ كلّ إجابة تحمل موت سؤالها.. لكن في هذه الحالة ليس المهمّ العثور على الإجابة، بل عملية البحث بحدّ ذاتها.. شيء ما تفتقده في ذاتك وتستمرّ بالبحث عنه، أن تبحث وتبحث».

«همم»، قال العجوز يوردو عند هذا المقطع من الحديث، وأضاف: «نصفان، كلامٌ فارغ».

«هكذا تحدّثت باربرا».

«الماعز هي الماشية التي نعرفها حقيقةً وواقعاً، والإنسان هو كيان محسوس. لا توجد أنصاف ولا أرباع»، أجاب العجوز بصورة قاطعة.

استمرّ بافِل بالحديث عن علاقته العاطفية مع باربرا.

أظنّه لم يُخفِ أيّ تفاصيل أمام العجوز يوردو، وأسرّ له بتلك

t.me/qurssan

اللحظات الحميمة المقدّسة التي تخلّلت تلك العلاقة. الجيولوجيّ الشاب كان بعيداً كلّ البعد عن التفاخر البذيء الذي يصاحب عادة أحاديث الرجال المماثلة عن النساء.

«لو كانت باربرا هنا لحوّلت تلّ الشيطان لمدينة وارسو».

اعترض العجوز على الفور وصاح: «لا يمكن لإنسان أن يغيّر طبيعة تلّ الشيطان».

صمت بافِل لوهلة ليشعل لفافة تبغ أخرى. أدرك خلال فترة الصمت هذه أنّ العجوز ينتظر بقية الحكاية بفضول غير خفيّ. لذا تعمّد أن يطيل صمته حتّى قال العجوز أخيراً: «وماذا بعد؟».

شعر بافِل بالرضا وأردف: «خيالها الواسع لم يسمح له بإنجاز أعماله ولا حتّى الاستمتاع بأوقاته. في إحدى المرّات حدّقت في أحد أبحاثه المتعلّقة بالمناجم، وسألته: تخيّل أنّك تعثر على كوم كبير من الذهب الخام، آلاف الأطنان من الذهب، ماذا ستفعل؟ وقبل أن تستمع لإجابته أردفت قائلة: لو كنتُ مكانك لأجبرت الجميع على تركيب مقابض ذهبية لكلّ أبواب منازلهم، هكذا ستشعر أصابع يديك بالسعادة».

ثمّ تركض إلى الجهة المقابلة من الشرفة وتصيح: «بافِل. انظر إلى الشمس، إنّها سوداء!».

«كيف يمكن للشمس أن تكون سوداء؟». ألقى بافِل نظرة إلى السماء المضيئة.

«نعم، توجد شمسٌ سوداء. أنا شخصياً شاهدتها». قال العجوز يوردو بانفعال.

شعر بافِل بالارتياح لأنّ العجوز يستمع بانتباه لحديثه.

في إحدى الأمسيات ذهبا إلى تلك الحانة الشهيرة وربّما المكان الوحيد في العالم الذي يبيع النبيذ بالمتر الطولي. كانا يجلسان إلى الطاولة وقد ملأا كأسين من الحجم الكبير المزخرف بدوائر. أخبرته بأنّها ترغب باحتساء سبعة كيلومترات من النبيذ في تلك

t.me/qurssan

الليلة. وأضافت: «لأنّني قررتُ أنّ ننفصل. إذا استمرّت علاقتنا هذه سنخسر كلّ شيء. لن نتمكّن من المحافظة على فطرتنا وسجيّتنا. الخلاص الوحيد هو أن ننجب أطفالاً، لكنّي لا أريد طفلاً منك، لذا علينا أن ننفصل».

لم يصدّق كلامها بالطبع لأنّها غالباً ما توظّف مخيّلتها في مقترحاتها الغريبة.

«لماذا تصرّين دوماً على تحديد مصير الأشياء؟».

«لأتعذّب. سننفصل هذه الليلة وسنلتقي هنا بعد اثنتي عشرة سنة وسيكون لديّ اثني عشر ولداً وبنتاً من اثني عشر رجلاً. لكلٍّ منهم برجه، وسيمتلك أبنائي اثنتي عشرة شخصية مختلفة... سيصطفّون أمامك وسأقول لك: هذه هي أنا».

«رائع!»، أجاب بافِل.

في هذه اللحظة انهارت مسرحيتها وطفقت فجأة بالبكاء، ثمّ انكبّت عليه تقبّله. عادا للمرّة الأخيرة إلى غرفتها فوق السطوح. انتظرا حتّى الفجر، مارسا الحبّ وتعانقا حتى الصباح.

«غادِز غرفتي من الشرفة فوق أسقف المباني! اذهب من هنا فوق سقف المدينة!».

غادر بافِل عبر الشرفة إلى الخارج. وقفت من خلفه عارية عند الباب وتجلّى جسدها تحت أوائل خيوط الشمس.

«يا لها من حكاية!»، قال العجوز بنبرة غير مألوفة.

بعد بضعة أيام فقط وحين صعد الدرج المؤدّي إلى غرفتها في قمّة المبنى، وقبل أن يضغط جرس الباب فُتِحَ البابُ وتعلّقت باربرا بعنقه.

«لماذا لم تحضر حتى الآن؟!».

«ألم ننفصل؟!».

t.me/qurssan

«متى انفصلنا؟ أنت مخطئ يا عزيزي. لا أذكر أنّنا قد اتفقنا على الانفصال. تعال لأريك ما عثرت عليه بين قطع القرميد على السطوح. لا شكّ أنّ طائراً قد أحضره من مكانٍ بعيد».

عرضت عليه الخاتم الذي اشترته من محلّ خردة يقتني القطع القديمة الأثرية لإقناعه بحكاية الطائر والخاتم.

هكذا استمرّت العلاقة بينهما حتى حلّت تلك اللحظة الفاصلة. في أحد الأيام قالت له باربرا فجأة بنبرة متوتّرة: «يجب علينا سحقهم!».

«ماذا نسحق؟ ماذا تقصدين؟»، أجاب بافِل بريبة.

«الأغبياء الذين يحكمون البلاد!»، صاحت باربرا. «هل لديك أدنى فكرة عن هؤلاء الماكرين الفاسدين الذين يتحكّمون بحياتنا؟».

ثمّ استعرضت محاضرة سياسية نارية ضدّ الديماغوجية والترهيب والعنف الذي يمارسه النظام الدكتاتوري. كانت في منتهى الحماس والانفعال كأنّها اكتشفت للمرّة الأولى أحد التفاصيل الصغيرة.

«أوه، لا يمكنني العيش في هذا العالم الكريه. لا يمكنني أن أحتمل هؤلاء الأوغاد الذين يمتصّون دماء شعبٍ بأكمله باسم كذبة. لا يوجد خيارات كثيرة أمامهم، عليهم أن يختاروا، أنا أو هم!».

لم يتمكّن بافِل من كبح ابتسامة ارتسمت على وجهه، لكنّها عاجلته عاتبة: «لماذا تبتسم؟!».

«لأنّك طفلة»، أجاب بافِل.

نتوقّع أنّ بافِل في حواره الأخير معها قد حاول أن يوضّح لها عدم إمكانية تغيير الأوضاع، وأنّ الحياة البشرية إذا ما ارتبطت بوجهة ما ونقيضها، وبضمن ذلك الحرية أو العبودية ستُحدث الأثر ذاته. التزم بافِل بهذا الموقف بالذات في خلافاته المتواصلة مع كوكو، محاولاً قدر الإمكان أن ينأى بنفسه عن الحياة الاجتماعية السياسية. عدا ذلك، أضاف بافِل إنّ الحياة تتماثل

t.me/qurssan

بالكامل مع شخصيات البشر ومصالحهم.

من المؤكّد أنّ باربرا قد انزعجت من موقفه، وأصرّت بذلك الحماس وبالاندفاع ذاته أن يمضي معها باسم الحرية، وأن يرفعا المتاريس ويطلقا النار ويواجها الحكومة والبرجوازية الحمراء. كانت دوافع بافِل على الأرجح ضعيفة للغاية وغير مقنعة، وربّما لم تكن تنتابه شكوكٌ في أنّ تهوّر حبيبته وثورتها هذه ستؤدّي إلى تبعاتٍ مميتة في ما بعد.

فجأةً اختفت من حياته تماماً وظهرت بعد أسبوعين تحمل مسدّسين. جفل حين رآها. طلبت منه للمرّة الأخيرة أن يرافقها، وللمرّة الأخيرة حاول أن يقنعها بأنّ ما تقوم به ساذج للغاية، وأن من الأفضل لها أن تعيش في الغرفة فوق السطح بمعيّة مخيّلتها الواسعة. عندئذٍ تركته وأغلقت الباب خلفها بعنف.

بعد بضعة أيام بصقت باربرا في وجه وزير الداخلية في أحد المسارح، في الوقت الذي كان يدخل هناك بصفته الرسمية محاطاً ببطانته وحرسه. سارع الحرس على الفور باعتقالها وعمّ الذعر في المسرح. كان الوزير معروفاً ببذاءته وعلّق الرجل صائحاً: «هذه يدُ العدوّ الطويلة».

اصطحبوا باربرا إلى مركز الأمن. حاول بافِل من دون طائل أن يخفّف قليلاً من مصيرها، حاول أن يشرح للمحقّق حقيقة هذه المرأة، لكنّهم أصرّوا على اتّهامها ووسمها هي بالذات «يدُ العدوّ الطويلة».

رآها بعد شهرين خلال جلسة المحاكمة، كانت تجلس في حجرة مغلقة مخصّصة للمتّهمين يحرسها رجلا أمنٍ طويلا القامة، وكلّ القرائن تشير إلى نهاية لهوها ووضع حدّ لمخيّلتها المشاكسة. بدا المشهد مضحكاً ومخيفاً في الوقت نفسه. شاهدت بافِل بين الحضور، لوّحت له بيدها فرِحةً. كان من الواضح أنّ المحاكمة برمّتها مسرحية عبثية وغبيّة كباقي المحاكمات التي تشهدها البلاد. من جهة أخرى شاهد باربرا سعيدة ونحيفة، ومدّعي النيابة الشعبية غاضباً يتأتئ بعصبية ويتلعثم خلال قراءة نصّ الحكم

t.me/qurssan

الصادر بحقّها، حتى ملأ أوجه الحضور برذاذ لعاب فمه. باربرا حسب نصّ الاتهام ألدّ أعداء النظام الحاكم، أمّا البصاق في وجه الوزير فهجمة قادمة من العالم الرأسمالي منظّمة بطريقة جيّدة.

عندما سألها القاضي عمّا إذا كانت نادمة على فعلتها، أجابت باربرا بنبرة فخورة: «أنا آسفة لأنّني لم أتمكّن من قتله، ولكن كيف يمكن قتل نكرة؟».

يعود الفضل على أيّ حال لبعض السويّين من المقرّبين لإصدار حُكم بالسجن لمدّة ثلاث سنوات فقط. وما إن قرؤوا الحكم حتى طفقت تضحك، وصاحت تجاه بافِل: «انظر إليهم، إنّهم حتّى لا يخجلون منّي!».

غادرت باربرا صالة المحكمة بتحدٍّ واضح. شعر بافِل بالحرج والضيق من تلك الوضعية، من النظام ومن باربرا لأنّه بقي مصرّاً على فكرة أنّ بقاء النظام ومعارضته أمرٌ مفرَغ من أيّ معنى. كان من الصعب عليه أن يصدّق أنّ الفتاة التي تقمّصت هيئة نصب في نافورة الماء قد باتت خلف جدران السجن.

«إيه يا بافِل، هل تمتلك فيلاً؟ المعنى كلّه يتمثّل بامتلاك فيل».

ذهب لزيارتها في السجن، وجدها ترتدي ثياب سجن بغيضة، لكنّ عينيها تضحكان قبالته.

«أنا سعيدة»، قالت من خلف رأس الشرطي، وأضافت: «أنا أسعد من أيّ وقتٍ مضى».

هكذا أبقى بافِل على ذكراها.

حين خرجت من السجن كانت قد كوّنت حياة جديدة مختلفة.

أنهى بافِل حكايته مع باربرا وقد اقترب منتصف الليل. السكون اللامتناهي يخيّم على المكان، كأنّ السكينة والصمت تستمع لذاتها. العجوز يوردو بقي جالساً وظلّ ظهره منحنياً تجاه جذع شجرة البلّوط يستمع للحكاية ويدخّن غليونه.

t.me/qurssan

مضى بعض الوقت ثمّ قال العجوز: «همم، باربرا».

نطق العجوز يوردو اسمها بشيءٍ من التردّد كما يفعل الأطفال عندما يهمسون بالأسماء الغريبة. كان بافِل في تلك اللحظة مأخوذاً بالكامل بذكرياته المتعلّقة بتلك المرأة الغارقة في عالم الخيال حتى أنّه لم يبدِ أيّ فضول لفهم انطباع العجوز يوردو عن حكايته.

«ألم ترها بعد ذلك؟»، سأله العجوز فجأة.

«رأيتها عدّة مرّات ولكن حكايتنا كانت قد بلغت نهايتها».

«لماذا؟»، سأل العجوز على الفور.

«لماذا؟»، حاول بافِل أن يشرح الأسباب وأضاف: «لأنّ كلّ شيء يبلغ نهايته مهما طال المطاف».

لم يتمكّن بافِل من تقديم المزيد من التوضيح، هو نفسه كان يجهل حيثيات انفصاله عن باربرا، ولم يحاول البحث عن مسبّبات انفصاله عنها. بافِل يتفهّم تلك الحقيقة التاريخية «تبقى بداية كلّ قصّة حبّ ونهايتها مبهمة وتلقائية بطبيعتها». إذا أردنا أن نعتمد مفهوم بافِل بهذا الموضوع ثانية، يمكننا الإشارة إلى رسالة بعثها لكوكو، كُتبت في تلّ الشيطان في تلك الفترة تحدّث فيها عن عشيقاته: «أحببتُ كلّ واحدة منهنّ من دون أن أعرف الدوافع، وهجرتهنّ بالطريقة نفسها».

أخيراً أنهى بافِل مهمّته المتمثّلة بالحفر والمسح الجيولوجيّ. مهمّة فيزيائية شاقّة للغاية أنجزها بمفرده، وبقي عليه أن يبدأ المقاييس الجيولوجية.

تناول طعام الغداء في ذلك اليوم بجوار الحفرة واستراح طوال ساعة كاملة، ثمّ استحمّ بأشعة الشمس عارياً. للمرّة الأولى شعر بدفء النهار لطيفاً كأنّ تلّ الشيطان قد أصبح أنيساً. كأنّ الوحدة أظهرت له جانبها الرائع. ربّما شعر كأنّه شجرة البلوط الباسقة أو العجوز يوردو نفسه.

t.me/qurssan

كان في منتهى التجلّي يردّد أغنية ما، صعد بافِل إلى ذلك المكان الذي توجد فيه المجسّمات الشبيهة بالهيئات البشرية وفيل باربرا، وأخذ يحفر ويجمع عيّنات من الكتل الصخرية. عمل طوال فترة ما بعد الظهر بمطرقة ومقلاع.

في تلك الأثناء شاهد هيئة العجوز على التلّة المقابلة مقبلاً نحوه، وبعد قليل تأكّد من أنّه يقصده فعلاً. بدت هذه الخطوة لبافِل غير معهودة، لأنّ العجوز يوردو يقود قطيع ماعزه عادة في الاتجاه المعاكس، هناك إلى الأسفل حيث يتوفّر العشب والكلأ.

بعد نصف ساعة تقريباً مثل العجوز أمامه.

«ماذا تفعل؟»، سأله.

«أقتطع بعض العيّنات»، أجاب بافِل مسروراً بزيارة العجوز.

«عجيب، هل هناك ما يستحقّ المعاينة في هذه المنطقة!»، أفاد العجوز بلهجته الساخرة المعهودة وأضاف: «حجر يوجد من العهد القديم وسيبقى هنا إلى الأزل».

«أين القطيع؟»، سأله بافِل.

«يرعى. وأين فيلك؟»، أجاب العجوز على الفور.

«ها هو ذا الفيل»، وأشار إلى المجسّم الصخري قبالته.

«أترى؟ أعيش هنا منذ زمنٍ طويل ولم ألاحظ هذا الفيل حتى اللحظة!»، بدا العجوز أكثر حيويّة من اللقاءات السابقة.

«دعنا ندخّن لفافة تبغ!».

جلسا في ظلّ الصخرة، أشعلا لفائف التبغ ثمّ صمتا طويلاً. كلاهما ينظر إلى المجسّمات الصخرية المدهشة أمامهما، والتي بدت تحت أشعة الشمس الآيلة للمغيب أكثر غرابة. رموزٌ عصيّةٌ على الحلّ كفكرة مخيفة. شيءٌ ما قضى قبل أن يولد.

أدرك العجوز ما يعتمل في نفس بافِل وقال: «هذه المجسّمات

t.me/qurssan

حجارة وشخوص في الوقت ذاته».

«بل حجارة شبيهة بالبشر»، أردف بافِل. محاولاً تصحيح فكرة العجوز.

«لا، لا». اعترض العجوز وأضاف: «حدث هذا قبل وقتٍ طويل. هنا في هذا المكان تحديداً خلقت الشمس والقمر أشخاصاً. الشمس قدّمت لهم الأبدان والقمر نفخ فيهم الروح. هكذا خلقوا الكثير من البشر. لكن يوماً ما وخلال عملية التصنيع هذه اختلف هؤلاء الذين تراهم أمامك. صاحت الشمس إنّ البشر الذين تخلقهم قادرون على العيش بلا روح. لكنّ القمر أكّد أنّ الأرواح التي يخلقها يمكنها العيش بلا أجساد الشمس المكوّنة من اللحم والدم. اندلع خلاف حادّ بينهما. وحين قدّمت الشمس الأجساد خلال النهار امتنع القمر عن منحهم الأرواح ليلاً. وعندما يقدّم القمر الأرواح ليلاً تمتنع الشمس عن منحهم الأجساد البشرية. هكذا بقوا على حالهم هذه جالسين منذ زمنٍ بعيد، ليسوا بشراً ولا حجارة. ربّما استمعتَ أنتَ أيضاً إليهم في ساعات الليل حين يمنحهم القمر الأرواح، عندئذٍ يصيحون بأصوات مثكلة متألمة كما هو حال الذين حُرموا من الولادة. كم مرّة رجوتُ الشمسَ والقمرَ أن يتصالحا! حدّثتهم مطوّلاً بكلّ الأساليب الممكنة لكنّهما رفضا ذلك، الكراهية بلغت حدّاً لا يمكن تجاوزه بينهما».

صمت العجوز يوردو واستمرّ يدخّن غليونه بمتعة. تهيّأ لبافِل أنّ هيئات الحجارة تعكس حقيقة الكراهية ما بين الشمس والقمر. لاحظ كذلك أنّ هذه الهيئات تبدو أكثر حيوية ومليئة بالحياة كلّما مالت وانحنت زاوية سقوط أشعة الشمس فوقهم.

أراد بافِل أن ينهي بعض المهام ليعودا معاً، لكن العجوز قال فجأة: «همم، هل لكَ أن تخبرني بالمزيد عن مدينتك وارسو؟».

استغرب بافِل هذه الدعوة غير المتوقعة. كان العجوز قد استدار نحوه بالكامل ناظراً إليه بعينين متشوّقتين. كان من الواضح أنّه قد حضر إلى مركز عمل بافِل للاستماع لحكاية أخرى شبيهة بحكاية باربرا.

t.me/qurssan

«ماذا أقصّ عليك يا جدّي؟»، سأله بافِل مبتسماً.

«أيّ شيء»، أجاب العجوز على الفور.

ضحك بافِل لأنّ رغبة العجوز في تلك اللحظة تماثلت مع حاجته الخاصّة إلى سرد الحكايات والبوح. تفكّر قليلاً، ثمّ وجّه لصاحبه السؤال التالي: «ما رأيك أن أقصّ عليك حكايتي مع إيڤا؟».

«ولكَ أيضاً حكاية مع إيڤا؟»، تنهّد العجوز وتذكّر معزاته المفضّلة.

«نعم، لكلّ واحدٍ منّا إيڤا أيّها الجدّ»، أجاب بافِل، وأضاف: «أترى ذلك الحجر هناك قبالتنا، الحجر الصغير إلى اليسار.. إنّه يشبه إيڤا إلى حدّ كبير».

تمعّن العجوز في الحجر وقال: «ويشبه حبيبتي إيڤا أيضاً».

تهيّأ لي بافِل في تلك اللحظة يقصّ حكايته على النحو التالي:

بدأت قصّتنا خلال فصل الشتاء، شتائي الثالث في وارسو. في إحدى الأمسيات اصطحبني الأصدقاء عنوةً إلى حفل تخرّج راقص، وأنا حقيقة أكره الاحتفالات الرسمية المنظّمة الراقصة لأنّها غارقة بالفوضى والضجيج والفراغ المزعج. لكن وبصراحة، أيّها العجوز، تملّكني في تلك الأمسية إحساسٌ متميّز.. كنت على ثقة بأنّ خطباً جميلاً يقترب منّي.. شعرت به يهيم في الهواء والفضاء المحيط، وقلت في نفسي: «سيحدث خطبٌ جميلٌ ما!».

صالة الرقص متألّقة بزخرفتها البديعة والشمعدانات المنتشرة في جوانبها، ما أضفى عليها سمة احتفالية مشرقة. بدأ الحفل الرسمي بحضور عميد الكليّة والطاقم الأكاديمي، ثمّ قدّمت مجموعة من الفتيات المرتديات ملابس كلاسيكية رقصاتٍ بولندية قديمة. جميع هذه الفقرات تقليدية وإلزامية خلال حفلات تخرّج الطلاب وكان عليهم القيام بها.

تأخّر بافِل وأصدقاؤه بالطبع، لأنّ الطريق إلى الحفل يمرّ عبر تلك الحانة التي تبيع النبيذ بالمتر الطولي، لكنّهم تمكّنوا من قطع

t.me/qurssan

المسافة القصيرة على الرغم من تأثير النبيذ الذي تجرّعوه. كانوا مهتاجين ومبتهجين وعلى استعداد لارتكاب أيّ مغامرة ممكنة. لذا حين وصلوا إلى الجامعة اندفعوا خلال الباب المفتوح البعيد عن الازدحام حيث تجلس الوجوه الرسمية، فوجدوا أنفسهم مباشرة أمام الفتيات الراقصات، وأعضاء الأوركسترا الضخم يعزفون تلك الرقصة الشهيرة بانفعال، والأجواء توحي بجمالية وغباء في الوقت نفسه.

شاهد فتاته على الفور.

«كنت مع تلك اللحظة على موعد»، قال بافِل للعجوز.

كانت ترقص على بعد خطواتٍ معدودة منه في وسط الصالة، فوق رقعة الفسيفساء الدائرية السوداء. نحيلة وكتفاها ضيقتان كالأطفال، قوامها هشّ بمثاليّة يتأرجح كالأثير فوق البقعة السوداء اللامعة، شعرها ذهبيّ مربوط إلى الخلف بطريقة تكشف جمال وجهها البديع. تقاطيع وجهها متناسقة وخلابة حدّ المثالية. جمال يزيغ الأبصار كأنّها رؤية قادمة من عالمٍ آخر، كأنّها جنّيّة أو حوريّة أتت لترقص تحت وقعِ أنظارنا، نحن المحكومون بالفناء.

«كنت أحدّق بعينيها ولا أرى سواهما.. عيناها يا جدّي تجلّتا كلون العنبر حين يتفتّح في ساعات الصباح الباكر. كنت أقترب منها لا إرادياً غير قادرٍ على امتلاك أنفاسي»، قال بافِل بصوت مرتعش كأنّه خارج عن طبيعته المعهودة.

«هذه المرأة ساحرة حقيقية»، ردّ العجوز يوردو.

«أعجز عن الوصف يا جدّي، لا يمكن التعبير عن المشاعر التي اعترتني في تلك اللحظة».

«نعم هي جنيّة، يمكن للإنسان أن يفقد حياته إذا ما نظر إليها، بل ويموت بكلّ سرور»، أكّد العجوز بنبرة الواثق من حديثه.

«كانت ترقص دونما اهتمام بما يحدث من حولها مستقلّةً عن العالم الخارجي، تتمايل كالأمواج المتهادية في ساعات الصباح

t.me/qurssan

الباكر، وسنابل القمح الناضجة، وكما تتساقط أولى أوراق الشجر في فصل الخريف، تمايلها وحركاتها مغرية وممتعة».

لم يدرك بافِل نفسه تفاصيل الانطباعات التي ارتسمت على وجهه خلال لقائه الأوّل مع تلك الفتاة. أفاد أصدقاؤه في ما بعد بأنّه قد وقف أمامها مأخوذاً بسحرها وفمه نصف منفرج، شاعراً بسعادة كبيرة ونشوة عارمة. كان يبدو كمجنون تحرّر من ذاته تاركاً مآسيه راكضاً نحو أفكارٍ تنتمي إلى عوالم أخرى.

هي أيضاً شاهدته وسرعان ما صفت عيناها الزائغتان، جسدها المكرّس للرقص سرعان ما ارتفع قليلاً، فأخطأت الإيقاع ونبض الموسيقا. لا شكّ أنّ وجهه قد ترك لديها انطباعاً عميقاً للغاية، ويبدو أنّها قد أدركت ما يعتمل في نفسه آنذاك، وربّما وجدت نفسها منجرّة وأسيرة جموحه وهيامه النقيّ بكيانها.

اقترب أحدهما من الآخر في وسط الصالة وبين الحشد الكبير من الطلاب تحت وقع أصوات الأدوات الموسيقية الصاخبة للأوركسترا. اقتربا وابتعدا في الوقت نفسه عن كوكبة الأوركسترا وعن الراقصين من حولهما، وبقيا وحدهما بالكامل عند لحظة التلاقي المنتظرة. ما يذكره بافِل في ما يتعلّق بتلك اللحظة أنّ شفتيها تحرّكتا لتهمسا بشيءٍ ما وبقيتا منفرجتين في حالة انتظار.

دخل بافِل في حلقة الرقص، وفي لحظة احتفالية احتضنها وقبّلها أمام أنظار الحضور المذهولين. توقّفت الجوقة الموسيقية لوهلة عن العزف، خيّمت لحظات محرجة، وأخيراً صاح أحدهم: «دقّوا الطبول!».

وقفا في وسط الصالة متعانقين كما يحدث عادة في قصص الحبّ التي تنتهي بلقاء الحبيبين واحتضان الفتى لحسنائه. تقاربهما جاء تلقائياً وعفوياً ولم يخطر ببال أحد أنّهما يلتقيان للمرّة الأولى في حياتهما. بقيت شفاههما ملتحمة طويلاً، ثمّ استعادا وعيهما عندما جرّهما الأصدقاء إلى خارج الصالة، وبعد أن أبدى عميدُ الكليّة وطاقم الجوقة البروتستانتيين امتعاضهما

t.me/qurssan

الشديد من المشهد العاطفي المفاجئ.

كانت تلك الليلة شديدة البرودة والثلوج تهطل بكثافة، وبافِل يسير في الشوارع الساكنة محتضناً إيڤا وهو على ثقة تامّة بأنّه أسعد رجل في الدنيا.

تذكّرا في ما بعد تلك اللحظة الفاتنة البديعة، وحاولا تكرارها ثانية ليستشعرا فتنة وجمال لقائهما الأول الذي غالباً ما يصعب تكراره.

لا أدري ما الذي قصّه بافِل أمام العجوز يوردو بشأن تفاصيل علاقته مع إيڤا، التي خلت من المفاجآت ولم تشهد أحداثاً غير عادية، إيڤا نفسها أبقت على أجواء من الهدوء والسكينة طوال هذه العلاقة خلافاً لباربرا. من المفارقات الجديرة بالذكر أنّ إيڤا كانت طالبة في كلية الرياضيات، متواضعة للغاية وتنحدر من عائلة نبيلة وشهيرة في بولندا.

«كانت واضحة ودقيقة حدّ العجب، إلى درجة جعلتني أندهش من موافقتها على قبول رفقتي ومعاشرتي. إيڤا تكره القصص الغامضة وتكره الضبابية وتفضّل الانزواء والابتعاد عن الآخرين. كانت تتصرّف بشيء من الكبرياء والبرودة، وعلى الرغم من معالم وجهها اللطيفة إلا أنّ شخصيتها قويّة وصلبة، الحقيقة أنّني لا أعرف شخصاً أكثر توازناً واستقراراً منها». هكذا تحدّث بافِل عن إيڤا بعد سنوات من انفصالهما.

يراهما الأصدقاء والمعارف يسيران ويتنزّهان يومياً في شوارع المدينة، حتّى إنّهما لا يتبادلان الحديث ويبدوان أحياناً شاردَي الذهن منشغلين في أمرٍ ما وغارقين في حالة من توحّد العشّاق المطلق.

أعتقد أنّه من غير الممكن توضيح ما تضمّنته تلك الساعات المشتركة بينهما، والتي يستحيل إنتاجها بكلّ الدعة والارتياح الذي يصاحب ذروة العلاقات العاطفية. كلّ حركة وفكرة لديها تؤكّد كنه المشاعر الأبدية المألوفة والمتجدّدة.

t.me/qurssan

أمضيا عطلة الصيف معاً، ثمّ ابتعث المعهد العالي بافِل في مهمّة تدريب لدى مركز للتنقيب والبحث الجيولوجي في منطقة جبلية خلابة ومحاطة بغابات واسعة وبحيرات ومروج خضراء. وصلت إيڤا إلى هناك بعد بضعة أيام، واستقرّت في أحد مراكز الاستجمام والراحة للنساء بالقرب من بافِل، وفي كلّ مساء يصعد بافِل تلّة شديدة الانحدار متوجّهاً إلى مركز إقامتها ما بين الأعشاب الكثيفة الشائكة ليلتقيها في بستان، وما إن تراه حتى تندفع نحوه. يرفعها بافِل بين يديه ويمضي بها إلى الأعلى تجاه البحيرة الموجودة في الجوار. وفي كلّ ليلة يرتعش جسداهما العاريان من برودة الماء، يسبحان متعانقَين وقد حان موسم الورود وتغريد الطيور.

في ساعات المساء المتأخرة يتسلّل بافِل إلى مركز الراحة والاستجمام المخصّص للنساء والملتزم بالنظام البروتستانتي، وعادةً ما كان يُطفئ المصابيح الكهربائية ويسير على أطراف أصابعه في العتمة حتى يصل إلى سريرها، وكانت هي تسلّمه نفسها حدّ الإشباع بمشاعر فيّاضة متحرّرة، وهو مستثار من لدونة جسدها البضّ والتواءاتها العذبة الحسّاسة بين يديه. تجذبه نحوها وتحرقه بنيرانها وتعشق النظر إليه ملتصقاً بها والتعلّق بعنقه، وهو يغطّي جسدها بقبلات حارة مستشعراً خلجاتها. جسدها الهشّ يشحنه ويستثير مشاعره، يتعامل معها كامرأة وأحياناً كطفلة صغيرة، وهي تقدّس رجولته وطاقته البدنية الكبيرة، وتُعامله كعشيقة وأمّ.

في إحدى الليالي اكتمل قرص القمر، وقفا عاريَين أمام الباب الزجاجي يراقبان البدر بخضوع كأنّهما قد التقيا للمرّة الأولى. الأجواء نصف المظلمة في المكان أضفت على هيئتهما وقعاً مثالياً، ثمّ تاها مجدّداً في العناق والحبّ. اختفى بافِل عند الفجر، وعند الظهر حضرت هي لتراه في موقع العمل والتنقيب.

«أنتَ هنا؟»، سألته إيڤا.

«نعم»، أجاب بافِل.

t.me/qurssan

«وأنا هنا أيضاً؟»، قالت.

«نعم»، أجاب.

«هذا جوهر حكايتنا ولا شيء سوى ذلك»، قالت إيڤا.

بودّي أن أصدّق أنّ إيڤا كانت قصّة حبّ حقيقية، لأنّ ما شهداه وعايشاه طبيعيّ للغاية وفي منتهى البساطة. كانا مخلصَين ووفيَّين لحكايتهما بكلّ جوارحهما وبحماس واندفاع فريد. لم يعكّر صفو حبّهما أيّ حدثٍ غير مألوف وخارج عن الطبيعة البشرية.

عليّ أن أذكر كذلك أنّ بافِل على الأرجح لم يحاول أن يقيّم تفاصيل علاقته مع إيڤا، وهذا أمرٌ مألوف للكثير من معاصريه وأترابه. لذا تراه لم يتذوّق تلك النشوة والفرح اللتين نالهما خلال علاقة الحبّ هذه بالمقارنة مع تجارب الآخرين.

كانت قصة حبّ واقعية بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، لأنّها لم تشهد أيّ نهاية. التقى اثنان، وقعا في أسر الحبّ ومارساه حتى الثمالة، ثمّ افترقا.

«لماذا لم تتزوّجها؟»، سأله العجوز يوردو حين أنهى بافِل حكايته بصورة مفاجئة.

«لا أدري»، أجاب بافِل بصدق وصراحة.

«آه، كيف لا تعرف؟!»، استغرب العجوز إجابته.

«هكذا يا جدّي. كنّا مرّة عند محطّة القطارات الرئيسية، ذهبنا هناك لنتنزّه.. أردنا أن نشاهد القطارات القادمة والمغادرة، وفجأة تملّكتني رغبة أن أسافر بعيداً. أن أترك كلّ شيء من حولي وأسافر».

«لماذا؟»، طرح العجوز السؤال عليه مجدّداً.

«لا أدري. تملّكتني فكرة الصعود إلى القطار، أن أترك نفسي رهن عجلاته تدور وتدقّ الحديد، وأنطلقُ بعيداً إلى مكانٍ ما بغضّ

t.me/qurssan

النظر عن جهة السفر. وهي فهمتني جيّداً وسألتني: أتريد أن تسافر؟ أجبتها: نعم. أجابت: ماذا تنتظر؟ سافِرْ! ربّما لم تصدّقني وربّما حاولت في تلك اللحظة أن تتحدّاني. كان القطار في تلك اللحظة متوجّهاً إلى كراكوف وعلى وشك الانطلاق. قفزت عتبات القاطرة بسرعة وكان قد تحرّك فعلاً، ولم أكن أمتلك حتى تذكرة سفر. رأيتها تلوّح لي بيدها على الرصيف وهكذا انتهت الحكاية. لا أخفي عليك أنّ السفر كان ممتعاً للغاية، وفي تلك الليلة شربت حتى ثملت، ثمّ تعاركت بعنف في البار مع مواطن هنغاريّ لطيف للغاية. تلاكمنا طويلاً ثمّ انطلقنا إلى أحد الفنادق، استأجرنا غرفة وأمضينا الأمسية بشرب الخمر حتى الصباح. كانت مغامرة في منتهى الروعة».

ملأ العجوز يوردو غليونه بالتبغ ثانية والغروب قد خيّم فوق رأسيهما، وكان قد نسي أمر ماعزه تماماً. لاحظ بافِل أنّ قطيعه قد توجّه وحده نحو شجرة البلوط.

«همم، لماذا أتيت إلى هنا؟»، تساءل العجوز.

«ليس لديّ خيار آخر، كان عليّ أن أحضر».

«أمن أجل هذه الصخور؟». امتلأت نظرات العجوز بالغموض.

«لا أبداً. ليست هذه الصخور السبب الرئيسي لحضوري إلى هنا». حاول بافِل أن يشرح ويوضّح لنفسه بداية ما يتعذّر شرحه: «أتعرف يا جدّي، أنا أجهل دائماً لماذا أفعل هذا الأمر أو ذاك. أستشعر فقط بأنّ عليّ أن أقوم بخطوة ما وأنجزها، أفكّر بذلك لبعض الوقت لكنّي لا أدري الدوافع وراء قراراتي، وأفشل، في كلّ مرّة، في إيجاد الجواب الشافي كلّما وجّهت لنفسي هذا السؤال. لا أجوبة وربّما تكون المبرّرات غبيّة وغير مقنعة. أنتَ على سبيل المثال أتيت إلى هنا من أجل العناية بقطيعك. أليس كذلك؟».

«نعم، أنا هنا للعناية بقطيع الماشية».

«أنا لم أحضر إلى هنا كُرمى للصخور والحجارة»، قال بافِل وأضاف: «نعم، أحببت إيڤا كما لم أحبّ امرأة قبلها، وهي أحبّتني،

t.me/qurssan

وكان من الطبيعي أن نجتمع تحت سقفٍ واحدٍ مدى الحياة والكلّ من حولنا كان يتوقّع ذلك.. وفي اللحظة الحاسمة فضّلتُ الابتعاد عنها وحيداً إلى مدينة بعيدة.. أن أنطلقَ من دون الأخذ بالاعتبار إرادة أيّ شخصٍ أو أيّ شيء على الإطلاق. وغادرت».

رفع بافِل كتفه مكتفياً بهذا التوضيح ولم يجد ما يضيفه، أمّا العجوز فاستمرّ يستمع إليه ويدخّن بصمت موجّهاً أنظاره إلى الخطوط الرقيقة التي تخلّلت سطح الصخرة في الجوار، وقد أضفت عليها العتمة المقبلة هيئة أنثوية.

«ألم تشعر بالحزن لفراقها؟»، سأله العجوز فجأة.

«لا أبداً، كنت سعيداً لأجلها».

«عندما سرقوا معزاتي المفضّلة إيڤا شعرت بحزن شديد، كدت أمرض لفراقها»، قال العجوز.

صمتا لبعض الوقت.

تهيّأ لبافِل أنّ العجوز قد استغرق في أفكار عميقة ولم تبدُ عليه أيّ رغبة بالعودة إلى كوخه. كان ينظر في الأفق البعيد أمامه ويدخّن بهدوء. ذكّره بافِل بعد لحظات: «دعنا نذهب يا جدّي، يبدو أنّ الماعز قد انطلقت وحيدة!»، أشار للقطيع الذي ابتعد كثيراً عن المكان.

«وأين يمكنها أن تذهب يا تُرى؟ إلى الحظيرة بالطبع»، أجاب العجوز ضاحكاً.

استغرب بافِل صوت العجوز ونبرته الساخرة، ولم يسبق له أن سمعه يتحدّث بهذه الطريقة الغامضة.

كانت النجوم قد استقرّت في عمق السماء حين انطلقا عائدين إلى شجرة البلوط. سارا ببطء ولأكثر من مرّة حاول بافِل أن يتجاذب مع العجوز أطراف الحديث، لكنّه لاحظ أنّ الأخير لا يستمع إليه نهائياً. الحقيقة أنّ حكايته مع إيڤا والنهاية غير المتوقّعة تركت لدى العجوز انطباعاً عميقاً للغاية.

t.me/qurssan

حين افترقا سأله العجوز: «كيف سوّلت لك نفسكَ مفارقتها؟!».

لم تحدث أيّ مفاجآت خلال الأيام القليلة المقبلة، استمرّ بافِل بمعاينة الصخور والعجوز كعادته يسير طوال النهار خلف الماعز. وفي المساء يعود كلّ منهما إلى مقرّه متعباً ولا يبديان رغبة بالحديث. على الرغم من ذلك اعتقد بافِل أنّ العجوز يتعمّد تجنّبه. التقيا أكثر من مرّة في أنحاء ينبوع الماء، لكنّ العجوز سارع بالابتعاد على الفور عن المكان مفضّلاً مرافقة ماعزه، وفي هذه الأثناء يراقبه بافِل وهو يداعب ماعزه ويلاعبها ويحدّثها بحبّ وتعلّق أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

بعد بضعة أيام كأنّ العجوز أراد أن يشتّت شكوك بافِل، فحضر إلى مكانهما المفضّل تحت شجرة البلّوط للحديث والسمر. أحضر لبافِل لبناً دسماً للعشاء وظهر لطيفاً وفي مزاجٍ رائع. تناولا الطعام ثمّ شرعا بتدخين التبغ. كان بافِل متعباً وأخذ يتثاءب.

«والآن، هل لكَ أن تخبرني بحكايةٍ أخرى؟»، سأله العجوز فجأة بصوتٍ أقرب ما يكون إلى صوتِ طفلٍ يرجو أن يقصّوا عليه حكاية قبل أن يخلد للنوم.

«يبدو أن مدينتي وارسو قد أعجبتك يا جدّي؟»، أشار بافِل مبتسماً.

لم يردّ العجوز عليه بشيء، لم يحاول إخفاء فضوله أو الإفصاح عنه، كان بكلّ بساطة ينتظر حكاية جديدة.

تفكّر بافِل قليلاً هل يقصّ حكاية جديدة أو يمتنع نهائياً عن ذلك.

«هذا الصمت المطبق في تلّ الشيطان كأنّه حثّني وتحدّاني لأن أتحدّث وأستمع». أوضح بافِل موقفه في ما بعد.

انتظره العجوز ليبدأ قصّته الجديدة، عندئذٍ تحمّس بافِل وسأل: «أتحبّ البحر يا جدي؟».

«ولماذا يجب عليّ أن أحبّ البحر؟ أنا لم أره أبداً طوال حياتي».

t.me/qurssan

«لكنّه قريب من التلّ، عليك أن تذهب وترى البحر يا جدّي».

«ولماذا يجب عليّ أن أزور البحر؟»، أجاب باللهجة الساخرة ذاتها.

«لا بأس. سألتك لأنّ البحر الذي سأتحدّث عنه يختلف عن بحرنا هذا. لكن لا تقلق أيّها الجدّ!».

ثمّ وكالعادة، اضطجع بافِل تحت شجرة البلّوط متّكئاً على مرفقه مستديراً حول العجوز الذي اقترب منه أكثر ليسمع كلّ كلمة.

حدث ذلك خلال الصيف الثاني بعد فراقه مع إيڤا، في تلك الأثناء كان يعيش في شقّة مع كوكو يستمتعان بأوقاتهما برفقة مضيفتين. كوكو كان فرحاً بهذه العلاقة لأنّ المضيفات يكثرن من الغياب وهكذا تراهم في شوقٍ دائم. سونيا المضيفة وعشيقة بافِل، وكانت في منتهى الجمال والأناقة وغيورة.

«لم يخطر ببالي قطّ أن أقارن ما بين العشيقتين»، قال بافِل وأضاف: «كنّا نعتبرهنّ شيئاً واحداً أو مخلوقات مختلفة بالكامل، لكن وفي كلتا الحالتين كانتا عصيّتين على المقارنة، وربّما ساهم فعل المقارنة ما بينهنّ على حرماني من الفرادة والتميّز».

استمتع بافِل فعلاً بغيرة سونيا التي كانت تطلب منه بصورة شبه يومية أن يقسم لها إنه لن يلمس امرأة أخرى ما دام على قيد الحياة، وبافِل يقسم ضاحكاً بصفته أسيراً وخاضعاً لسلطتها الأنثوية المثيرة للضحك.

«آه يا بافِل، تذكّر ما أقوله لك، سأقتلك يوماً ما، سأقتلك!»، همهمت سونيا.

تصادف أن حصلت المضيفة على إجازة لمدّة ثلاثة أيام إضافة إلى يوم الأحد، وقرّر الجميع قضاء الإجازة على ساحل البحر. سونيا تمتلك سيارة، وهكذا جلس بافِل خلف المقود، فوجدوا أنفسهم بعد ساعات في مدينة ساحلية صغيرة.

تذكّر بافِل مجدّداً بدقّة تفاصيل تلك الأمسية، وقصّها بالكامل للعجوز.

t.me/qurssan

هنا عليّ أن أرجو القارئ أن يبدي بعض التفهّم لمحاولتي إعادة سرد الحكاية بأفضل الطرق المناسبة، وفي الوقت نفسه لديّ رغبة أن أربط هذه الحادثة بإحدى العبارات المفضّلة لبافِل: «أريد أن أسير في أثر الجرباء ذات اللون الأبيض».

ساروا في شارع أسفلتيّ طويل بمحاذاة البحر، وعلى الرغم من أنّ تلك الأمسية كانت تبشّر بقضاء أوقات ممتعة إلا أنّ بافِل بدا متعباً من قيادة العربة لساعات طويلة وذهنه خاوٍ، لم يشعر وقتئذٍ بحزنٍ أو سرور، بل استمرّ يسير معهم ويداه في جيبي بنطاله متأخّراً عنهم بضع خطوات. الفتاتان تأبّطتا يدي كوكو من اليمين واليسار، يسيرون أمامه بحثاً عن مطعم لتناول العشاء، والسماء في أثناء ذلك تهطل مطراً خفيفاً بصمت.

توالى دفقٌ متواصل من أنوار الفنادق والمطاعم والمحلّات التجارية على أطراف أسفلت الرصيف وعلى طول جادّة البحر، حشدٌ كبيرٌ من السيّاح يتنزّهون مرتدين ملابس حمراء، زرقاء وبرتقالية اللون، يعبرون كأنّهم يشاركون في استعراض جماهيريّ لأزياء ملوّنة. بولنديون، ألمان، تشيكيون، سويديون، مواطنون من مختلف أنحاء العالم، وبافِل ينظر إلى وجوههم ولا يراهم، يستمع إليهم ولا يسمعهم لأنّ كلّ هذا الحضور لم يكنْ يعني له شيئاً.

بافِل يعشق الأجواء اللامعة تحت وقع الأمطار الخفيفة، ويحبّ أن يدوس برك الماء الضحلة والتحديق في فحم السماء، كأنّه في هذا المجهول القطرانيّ ينتظر دافعاً تلقائيّاً نحو شيءٍ ما لا يعرف كيف يصفه. ربّما الدافع نفسه الذي حثّه ليركض نحو القطار في اللحظة الأخيرة تاركاً خلفه إيقا.

كوكو وسونيا ومارينا استمروا بالسير أمامه ولم يتوقّفوا عن الحديث، ثمّ استدارت سونيا نحوه وقالت: «بافِل، أريد أن نمضي ليلة ممتعة!».

أومأ بافِل برأسه موافقاً بالطبع، تفكّر برغبتها المستديمة لقضاء

t.me/qurssan

وقت ممتع حسب فهمها الخاصّ لذلك. مزاجها الجيّد يؤكّد توقّعها لأمسية مختلفة، ثمّ طفقت تحدّث كوكو عن بوخارست. استمع بافِل لصوتها الواضح الخالي من الاستثارة، وكان على يقين بأنّها قادرة على الحديث عن هونولولو. استغرب أن يقطعوا كلّ هذه الكيلومترات وأن يطؤوا أرض هذه الجادّة على بعد عشرة أمتارٍ فقط من ساحل البحر للحديث عن بوخارست.

تذكّر تلك اللحظة المميّزة حين ظهرت فجأة فرسٌ وسط الطريق ووقفت أمام العربة. فرسٌ بيضاء جرباء هزيلة، عيناها كبيرتان ودامعتان. نظرت إليه ساهمة، ثمّ مضت تعرج خلف الطريق كأنّها شبح حصان. أمّا بافِل فبقي خلف المقود وفي ذهنه تواردت ملايين الخواطر التي لا تستحقّ الذكر، خواطر شرطية «إذا»، ماذا كان سيحدث إذا لم يرَها، ماذا كان سيحدث لو تعطّلت كوابح السيارة؟ ماذا إذا...

بانت الفرس مجدّداً في الأفق حيث مغيب الشمس، بدت في تلك اللحظة بقعة سوداء، كأنّها اقتُطِعَتْ من بطاقتها الشخصية ولصقت في الأفق.

جادّة البحر طويلة مرهقة ورهط البشر لا ينتهي، يخرجون من كلّ الجوانب والمداخل لينضمّوا إلى أفواج المشاة، يتحدّثون بكلّ اللغات الأجنبية، ينطلقون إلى مكانٍ ما بأوجهٍ زرقاء، حمراء وبرتقالية. تفكّر بافِل وأسرّ في نفسه بأنّ هذه الجموع تبحث عن فرصة لقضاء «أمسية ممتعة». الأضواء تبشّ بكلّ ابتسامات الطيف الممكنة، ربّما لاجتذابهم لقضاء أمسية ممتعة، والبحر وحده يجثم بثقة في الجوار وحيداً أسود.

كوكو وسونيا ومارينا ما يزالون يبحثون عن مطعم. وهو يحدّق في العتمة اللامعة أمامه متفكّراً بالفرس الجرباء البيضاء التي تسافر عبر الآفاق.

«الفرس التي رأيتها ليست كائناً حيّاً، لا بدّ أنّها روحُ تقمّصتكَ»، قال العجوز يوردو الذي استمع بانتباهٍ بالغ لحكاية بافِل.

t.me/qurssan

تهيّأ له أنّه يسير في هذه الجادّة بانتظار حدثٍ ما. كان على بيّنة بأنّه لا يحتاج إلى شيء عدا مبرّر غير متوفّر على أيّ حال، لذا كان لا بدّ من استحداثه.

لا توجد موائد شاغرة في كلّ المطاعم التي ارتادوها، جميعها ملأى بالروّاد منذ ساعاتٍ طويلة. يطلّ بافِل برأسه من مدخل المطعم، فيرى حول الموائد حشداً كبيراً من ذوي الياقات البيضاء وربطات العنق والفساتين الملوّنة بمختلف الموضات ووجوهاً محمرّة ممتلئة. استعراض لتسريحات الشعر، استعراض للابتسامات، استعراض للنظرات وهدير الأوركسترا، يعزفون بصخب كما صواريخ الدفاع الجوي. لكنّهم فشلوا في العثور على مائدة فارغة كأنّ المواطنين قد قدموا جميعهم إلى المدينة الساحلية هذا المساء بالذات. المطعم الأول والثاني والثالث...

«كنت على قناعة بأنّنا سنمضي ليلة ممتعة»، أخذت سونيا تردّد شكواها بعبثيّة.

حاول بافِل أن يخفّف من كربها مؤكّداً إمكانية العثور على أماكن في مطاعم أخرى، ثمّ مضوا في تلك الجادّة اللامتناهية بالترتيب ذاته يبحثون عن مطعم. أخذ الثلاثة أمامه يشتكون من الاحتفالات والأعياد المقيتة التي تؤدّي إلى ملء أماكن الاستجمام كافةً، ومن الجمع الغفير من الأوغاد الذين يحرمون الآخرين من الجلوس في مطاعمهم المفضّلة والتواصل مع النادل المحبوب.

شعر بافِل فجأة بالسرور، كان على قناعة من ظهور الفرس الجرباء البيضاء في مثل هذه الأمسيات العجاف، لتنطلق بعد ذلك إلى الأفق، تتماهى فيه وتصبح جزءاً منه.

وفي المطعم الأخير على جادّة الساحل لم يعثروا على أماكن فارغة. عندئذٍ اقترح كوكو التوجّه إلى نزل الصيّادين، وعلى الفور انطلق الأربعة إلى هناك.

وجدوا أنفسهم في شبه مطعم مبتكر يبدو للوهلة الأولى غير

t.me/qurssan

مريح إطلاقاً. الموائد صغيرة متّسخة وقبيحة كأنّها انعكاس لتفاصيل الحياة الشعبية البائسة. سقيفة قرويّة من دون سقفٍ، جدارها مطليّ بالكلس الأبيض. أمّا المطبخ القريب فهو المرفق الوحيد المغطّى بسقف. المكان باردٌ ورطبٌ للغاية وخالٍ من الروّاد. ثمّ هبّت الرياح وهطلت الأمطار مجدّداً.

المطعم المتواضع قائمٌ فوق رمال الشاطئ، وفي الأنحاء لاحت الأعمدة السوداء لمظلّات البحر كأنّها هياكل كبيرة للفِطْر تُركت في وضعيّتها هذه كما كانت عليه خلال الأيام الدافئة.

شاهد بافِل الأسى في أعين سونيا، ثمّ نقل ناظريه إلى وجه مارينا الساخر التي كانت على ما يبدو تستمتع بوقتها، في الوقت الذي بذل فيه كوكو محاولات متكرّرة لبثّ مشاعر الأمل بينهم.

جلسوا على المقاعد الباردة، وعندئذٍ أطلق بافِل إحدى عباراته الشهيرة: «ليست الموائد هي التي تخلق مائدة عشاء ممتعة بل الجالسون حولها».

وجد بافِل لسببٍ أو لآخر في كلّ ما يحدث أمراً مدهشاً للغاية. كان يحدّق في الأخاديد العريضة لطلاء الجدار الحجريّ، يقرأ مختلف الأسماء المحفورة على الموائد ويشعر باستثارة لطيفة.

ظهر النادل من العتمة شبه ثملٍ يحترف المهادنة والابتسام. وقف أمامهم بتحدٍّ كقطّ فولاند في رواية «المعلّم ومارغريتا» للأديب الروسي ميخائيل بولغاكوف. كان ينتمي إلى تلك الفئة المرحة العابثة التي تستخدم معظم الوقت الأشعار والعبارات المجنّحة.

«نحن معاً منتمون، أنا تحت تصرّفكم وأنتم تحت تصرّفي!»، صاح النادل بنبرة احتفالية ماسحاً يديه بثيابه السوداء الملطّخة بالزيوت.

تفكّر بافِل بأنّهم قد طهوه أيضاً في الوقت الذي أعدّوا فيه وجبات السمك، وأنّ هذا النادل مقليّ ومألوف للغاية.

السرير ضيّقٌ لا يتّسع لأربعة.

t.me/qurssan

بقي فيه ثلاثة

السريرُ ضيّق لثلاثة

بقي اثنان

.....

يا للخداع!

لاحظ بافِل أنّ وجه سونيا يرتعش من الحرقة والخيبة وليس من حدّة البرد، وكوكو يحاول جاهداً إيجاد صيغة للتعامل مع هذه الوضعية المقلقة. حاول أن يقصّ حكاية مرحة ومتناقضة لكن أحداً منهم لم يعرْه أدنى انتباه. الديكور الصخريّ والبرد القارص أودى بكلّ نواياه. أخذت السماء تهطل ثانية. أحضر لهم النادل سمكاً بارداً وبعض المقبّلات الفاسدة، مضيفاً إليها قليلاً من الحميميّة، وشرعوا بتناول الطعام.

اشتكت سونيا بحرقة وألم عميق مردّدة أنّ كلّ ما حولها خالٍ من الفرح والبهجة، وأنّها عديمة الحظّ مقارنة بالآخرين، وأنّها غير قادرة على قضاء أمسية ممتعة واحدة على الأقل.

بافِل لم يدعم ولم يدحض شكواها وأخذ بيت الصيّادين يعجبه أكثر وأكثر. طلب بافِل وكوكو قارورة من النبيذ الأبيض، وسونيا لا تتوقف عن ذرف مشاعر التعاسة والتبرّم، عندئذٍ تذكّر بافِل ثانية تلك الجرباء البيضاء المسافرة نحو الآفاق. حدّق في العتمة تجاه البحر، وكان على يقين من أنّ الفرس ستخرج بعد قليل من عمق المياه. كان على وشك أن يخبرهم بحقيقة الفرس الجرباء البيضاء حين دخل المكان فجأةً مجموعةٌ من الرجال مكوّنة من سبعة ملّاحين يحملون سبعة قيثارات. وجوههم سوداء وقاماتهم قصيرة وسحنة بعضهم طفولية. سيعلمون في ما بعد بأنّهم قادمون على متن سفينة يونانية، وأنّهم قد ألقوا بالمرساة قبل ساعتين في الميناء القريب.

استقرّ الملّاحون حول المائدة المجاورة، وانهمكوا بدوزنة

t.me/qurssan

قيثاراتهم ما أثار جنون سونيا. لاحظ كوكو أنّ هذه القيثارات ستكلّل «أمسيتهم البديعة!». وكان ثلاثتهم على أتمّ الاستعداد لمغادرة المكان على الفور، لكنّ بافِل أقنعهم بالتريّث وأصرّ على طلب قارورة نبيذٍ أخرى.

يبدو أن الملّاحين قد لاحظوا قلقهم وتوتّرهم، فابتسموا وبدؤوا العزف.

تـردّدت فـي أنحـاء بـيت الصيّادين موسـيقا جـذّابة، وقـد أفـاد أربعتـهم لاحقـاً بـأنّ مجموعـة الملّاحين هـم فـي الـواقع فرقـة موسـيقية محترفـة لا مثيـل لـها، وأنّهـم لم يستمعوا مثيلاً لهذا العزف العذب طوال حياتهم. عزف الملّاحون وغنّوا مقطوعات اشتهرت بها جزر الجنوب، وأغانيّ عجيبة بل مزيجاً من التراتيل والألحان تحمل في مضمونها وكنهها الدفء والعواطف الجنوبية الجيّاشة.

إلقاؤهم شاعريّ للغاية، موسيقا خالية من الشوائب كأنّهم وُلدوا ليعزفوا ويغنّوا معاً.

تغيّر المزاج العام في بيت الصيّادين البارد. الموسيقا المنبعثة في الأجواء اجتذبت سيّاحاً آخرين للحضور إلى المكان الذي امتلأ بعـد أن تجنّبـه كثـيرون، ولـم يعـد قـادراً علـى استيعاب المزيـد. امتلأت الموائد الواحدة تلو الأخرى ولم تكفِ الكراسي المتوفّرة، أحضر البعض كراسي إضافية، بل وجلس شخصان على الكرسيّ الواحد في ما بعد.

«الفرس الجرباء البيضاء!»، قال بافِل.

«نعم، هو كذلك. الجرباء... أو الموسيقا!»، أردف العجوز يوردو.

تقافز النادل شبيه القطّ بيغيموت في أنحاء المطعم فرحاً، وثابر علـى تقـديم النبيـذ لـروّاد المطعـم مردّداً طـوال الـوقت قصـائده الرديئة.

استمرّ الملّاحون بالغناء حسب الأصول بفرحٍ غامر متحرّر ونشوة

t.me/qurssan

عارمة، ما إن ينتهوا من أغنية حتى يتبادلوا النظرات ما بينهم بصمت، ثمّ يبدؤون على الفور أغنية جديدة. يتبادلون النظرات في أثناء الغناء والنشيد كأنّ كلّ واحدٍ منهم يبحث عن الأغنية في أعين الآخرين.

على الرغم من امتلاء المكان بأكمله إلا أنّ الحشود لم تتوقّف عن الحضور للاستماع لهذه الفرقة العجيبة، وأحاطوا المكان من كلّ جانب. اعتدل مزاج كوكو وأخذ يقصّ على مسمع سونيا ومارينا قصصاً ممتعة. أشرق وجه سونيا وحدّقت بعشق ووله في وجه بافِل، هو أيضاً استكان في مقعده ناظراً برضا وفضول إلى الجمع الكبير من حوله. في الجوار كانت تجلس ثلاث حسناوات سويديات، وإلى جانبهنّ ألمانية فتية جميلة وبضع فتيات بولنديات.

«عيناي تبحثان وتبحثان»، اعترف بافِل أمام العجوز يوردو.

«الفرس الجرباء البيضاء»، أردف الراعي العجوز.

استمرّ بافِل في حكايته.

شاهد في لحظة ما أن كؤوس الملّاحين الفتّانين فارغة. تناول بافِل بضع قوارير من النبيذ وذهب لملئها، وفي طريق العودة إلى مقعده لاحظ وجودها. كانت تجلس على بعد بضعة خطوات في عمق المكان أمام الجدار الكلسيّ الأبيض. كأنّها تعمّدت ذلك لتظهر ألق شعرها الأسود وعينيها الأكثر سواداً. كان بافِل على أتمّ الاستعداد ليقسم إنّه قد رأى «عينين مليئتين بعتمة دافئة». كانت في نحو الثلاثين من العمر، وجهها جميل وقدماها مكتنزتان. حدّق بافِل في وجهها وأدرك.

«هي أيضاً تنتظر فرسها الجرباء البيضاء»، قال بافِل للعجوز يوردو.

لا بدّ أنّ الرجل السمين إلى جانبها هو زوجها، كان يتحدّث بصخب وصوت هادر للرفاق الجالسين إلى المائدة، جميعهم مأخوذون بفكرة عامّة استثارتهم باستثنائها، فقد كان بالها

t.me/qurssan

منشغلاً بعيداً عن عالمهم. عيناها السوداوان تحدّقان في العتمة خلف المظلّات على الشاطئ.

التقت نظراتهما، شعر بافِل ثانيةً بموجة من الإثارة تعتريه، وتمكّنت هي من تمييز الابتسامة التي انطبعت على معالم وجهه، وهكذا تعرّف أحدهما على الآخر.

تحدّثا وصوتاهما لا يمتلكان لساناً، على العكس من عينيهما ووجهيهما. كلّ انفعال أو خلجة امتلكت في تلك اللحظة لسانها المستقلّ. تمثّلت البداية برفع الكؤوس واحتساء النبيذ ببطء.

كان زوجها منهمكاً بحديثٍ صاخب عن رحلة ممتعة قاما بها إلى إيطاليا خلال العام الماضي. وفي الوقت نفسه تحدّثت سونيا لكوكو ومارينا عن رحلتها الجميلة إلى إيطاليا.

استمرّ الملّاحون السبعة في الغناء بإلهام مطلقين العنان لأصواتهم الصافية، وبدا أنّ تلك الأمسية الساحرة قد اقتربت من نهايتها.

تملّكت بافِل رغبةٌ جامحة أن ينادي تلك السمراء لينطلقا بعيداً عن الآخرين، لكنّها أوقفته بنظرة خاطفة حاسمة، فبقي التواصل بينهما محصوراً في النظرات المتبادلة التي حلّت مكان تشابك الأيدي وحمّى القُبل. في لحظة حالت رؤوس الحضور من الإبقاء على حبل تواصل نظراتهما، عندئذٍ بحثا عن حيّزٍ من فضاء المكان لتلتقي أعينهما ثانية ويواصلا حديث الغرام والحبّ.

لاحظ كوكو على الفور ما يدور من حوله، فهو دوماً قادر على ملاحظة التغيّرات الطارئة، لذا أدار ظهره بطريقة تحمي بافِل من فضح نواياه والحيلولة دون محاولة سونيا سلبه لحظات السعادة التي يعيشها صديقه. استعان بافِل بظهر صديقه على الرغم من مشاعر الدونية والإهانة التي ألمّت به.

في اللحظة التالية أسرّ لها زوجها بأمرٍ ما، ولاحظ بافِل على الفور كيف أخفت وجهها وانغلقت على نفسها فتحوّلت إلى كيانٍ آخر. ثمّ سرعان ما استعادت سكينتها وأشرق وجهها، فبدَتْ جذّابة

t.me/qurssan

أكثر من السابق.

«وجهها يرغب بالاحتفال»، قال بافِل للعجوز يوردو.

شعر بأنّ كلّ ثانية تجذب أحدهما إلى الآخر بلهفة وجنون. ولوهلة وقف كلّ منهما عند عتبة عالمه. توقّفا وتبادلا النظرات وعيناها تتساءلان عمّا إذا كان عليهما أن ينفصلا لأنّ العلاقة غير قابلة للتطوّر وتبدو بلا معنى.

«هذا غير صحيح! من يدّعي بأنّ علاقتنا بلا معنى؟!»، أجابت تقاطيع وجهه.

ابتسمت سعيدة بهذه الإجابة، ونظر كلاهما إلى هناك حيث العتمة المخيّمة في محيط المظلّات المزروعة في رمال الشاطئ، هناك حيث تنتظرهما على الأغلب الفرس الجرباء البيضاء.

كان الملّاحون قد وقفوا لتأدية أجمل أغانيهم، والأجواء في المطعم بلغت أقصى درجات التجلّي والانبساط.

لم تعد هناك أيّ ضرورة للحديث ما بينهما، فقد باحا بكلّ ما يعتمل في صدريهما، وانطلقا في الطريق المرسوم.

لم تتوقّف سونيا عن الحديث عن إجازتها الممتعة في إيطاليا، وزوج السمراء أيضاً مأخوذ بصيف إيطاليا.

نهضت المرأة عن الكرسي بحزم وبطريقة تدلّ على تصرّف عفويّ بعيداً عن الحكمة والروية. توقّفت عن النظر إليه باذلة جهدها لشقّ الطريق إلى مظلّات شاطئ البحر.

لحق بها بافِل على الفور. رآها تسير فوق الرمال وقوامها يرتجف بعصبية كأنّ قدميها لا تطأان أرض الشاطئ من تحتها. شعر كيف تحوّل اشتياقه إلى حالة من الجنون أو الانعتاق، الحالة نفسها التي عرفها حين قفز إلى القطار المغادر في طريقه إلى الفرس الجرباء البيضاء.

لحق بها ومدّ يديه نحوها هناك في حضن المظلّة الأولى.

t.me/qurssan

«آه يا جدّي، كانت تلك اللحظة الأجمل في حياتي والملّاحون يغنّون وينشدون»، قال بافِل للعجوز يوردو.

تبادلا القبلات بجنون، قبّلها وقبّلته بلهفة وعنفوان من دون توقّف. شعرا برغبة كبيرة في قطف ثمار الحبّ والحنان الذي تراكم لديهما طوال تلك الأمسية. نزع عنها بلوزتها وانهال يقبّل كتفيها العريضين وثدييها الصلبين الكبيرين ورقبتها ويديها.

في لحظة أوقفته وأمسكت يديه محدّقة بوجهه، وسألته بفزع: «هل أنتَ ثمل؟ هل أنتَ ثمل؟!».

ابتسم ثمّ قبّلها ثانية، ثمّ عادا أدراجهما. خرجا من ظلّ المظلّات ومضيا إلى أماكنهما في المطعم. استمرّ زوجها بحديثه واستمرّت سونيا بحديثها. توقّف الملّاحون عن الغناء وغادر روّاد المكان كلّ في طريقه، ثمّ صمت بافِل.

«كيف؟ ماذا حدث؟ ألم تلتقيا بعد ذلك؟»، سأل العجوز يوردو جليسه بحماس وفضول.

«لا لم نلتقِ. بحثت عنها في اليوم التالي في كلّ الفنادق، بل وفي كلّ مكان في الأنحاء، لكنّها كانت قد اختفت نهائياً ولم أرها بعد ذلك».

«يا لها من حكاية!»، أردف العجوز.

«لقد أخبرتك يا جدّي من قبل أن الأمور تبدأ وتنتهي من تلقاء نفسها».

لم يحاول العجوز متابعة الحديث، وبعد قليل غادر بافِل المكان إلى خيمته لينام، لكنّ الراعي يوردو بقي في مكانه تحت الشجرة، وبين الحين والآخر كان بافِل يرى التبغ المشتعل في غليونه ليكشف عن وجهه الغارق بالتفكير.

التقاه في صباح اليوم التالي، وكالعادة كان العجوز يوردو يجلس في الأفق لاستقبال الشمس ومحادثتها، وقد اتكأ بيديه ثانية على خيوط الشمس الأولى مطلقاً تلك الكلمات التى بقيت مجهولة

t.me/qurssan

لبافِل. لكن هذه المرّة لاحظ أن نبرة العجوز ثقيلة ومحمّلة بكثير من الأسى والسخرية، ربّما كان يهتف للشمس قائلاً: «أيتها الشمس، لعلّك تضيئين أكثر وأكثر، أيّتها الشمس!».

حين عاد بافِل من نبع الماء كان العجوز برفقة ماعزه وصاح قائلاً: «هيه يا بافِل، أرجوك أن تحضر هذا المساء مبكّراً، اليوم عيد ميلادي وأنتَ ضيفي!».

تعجّب بافِل من قدرة العجوز يوردو على تذكّر يوم ميلاده. بدا له الأمر غامضاً للغاية، لأنّ المواطنين في هذه المناطق غالباً ما يحتفلون بأعياد الأسماء بدلاً من أعياد الميلاد. ربّما لم يأخذ بافِل بالاعتبار أنّ العجوز يوردو وثنيّ المعتقد ولا يهتمّ بأعياد المسيحيين المقدّسة وأهمّها أعياد أسماء القدّيسين.

في تلك الأمسية عاد بافِل مبكّراً. حلق ذقنه، لبس قميصاً جديداً وبحث في متاعه عن هدية مناسبة للعجوز. وقع نظره على ألبوم صغير يضمّ صوراً لوارسو، ألبوم سياحي دسّه كوكو في متاعه قبل عودته إلى بلغاريا لإغاظته وممازحته. قرر بافِل أن الألبوم سيكون هدية مناسبة للعجوز يوردو. تناول آخر قارورة عرق من مخلّفات مجموعته الجيولوجية، وانطلق ليحتفل مع العجوز تحت شجرة البلوط.

وجد العجوز قد وضع بساطاً ملوّناً كبيراً، وفوقه القليل من البسطرمة والجبن والفطائر التي أحضرها الفتى خلال النهار من القرية، وقارورة كبيرة من النبيذ. كما شاهد كثيراً من البرقيات المرسلة من المؤسسات الحكومية، برقية من وزير الزراعة ومن منظمات أخرى لرعاية الماشية وغيرهم كثير. جميعهم يهنّئون العجوز الراعي بمناسبة عيد ميلاده، ويتمنّون له عمراً مديداً ليستمرّ بهذه المهنة.

«لم ينسوا يوم ميلادي!»، قال العجوز بنبرته المعهودة، وأضاف: «يرسلون لي كلّ سنة برقيات تهنئة».

«مجرّد برقيات؟ هذا قليل يا جدّي!».

t.me/qurssan

وجد العجوز قد وضع بساطاً ملوّناً كبيراً، وفوقه القليل من البسطرمة والجبن والفطائر التي أحضرها الفتى خلال النهار من القرية، وقارورة كبيرة من النبيذ. كما شاهد كثيراً من البرقيات المرسلة من المؤسسات الحكومية، برقية من وزير الزراعة ومن منظمات أخرى لرعاية الماشية وغيرهم كثير. جميعهم يهنّئون العجوز الراعي بمناسبة عيد ميلاده، ويتمنّون له عمراً مديداً ليستمرّ بهذه المهنة.

«لم ينسوا يوم ميلادي!»، قال العجوز بنبرته المعهودة، وأضاف: «يرسلون لي كلّ سنة برقيات تهنئة».

«مجرّد برقيات؟ هذا قليل يا جدّي!».

«حضروا إلى هنا قبل عامين وقدّموا لي ميدالية تحت هذه الشجرة، التقطوا الصور التذكارية معي، شربوا وأكلوا ثمّ غادروا التلّ». في تلك اللحظة تخلّل صوته نبرة ساخرة متهكّمة.

«شربوا وأكلوا وغادروا»، كرّر بافِل كلمات العجوز.

جلسا على البساط، ملأ العجوز أقداح النبيذ ورفع بافِل كأسه قائلاً: «مزيداً من العمر يا جدّي!».

أدنى الجدّ كأس النبيذ من شفتيه وأغمض عينيه ليكبت بعض التوتّر المفاجئ الذي ألمّ به، وحين حدّق ثانية بقرص الشمس الآيل للغروب قال بنبرة غير مألوفة: «سنوات حياتي كثيرة يا ابني، ما نفع العمر المديد؟!».

تذكّر بافِل تلك الكلمات بكلّ ما تحمله من إيحاءات وتجلّيات الحسرة والتهكّم، وفي وقتٍ لاحق بقيت تلك العبارة تتردّد في ذهنه، بعد انتهاء الحكاية، تاركة لديه إحساساً مريراً بتأنيب الضمير تجاه العجوز يوردو.

ومع ذلك كانت تلك الأمسية التي احتفلا بها بعيد ميلاد العجوز الثاني والثمانين في منتهى الروعة، في عمق صحراء تلّ الشيطان.

t.me/qurssan

ثمّ انشغل العجوز بتصفّح صور مدينة وارسو في الألبوم الصغير.

«هل مررت بكلّ هذه الأماكن؟»، مرّر أصابعه المتشقّقة في شوارع وارسو الظاهرة في الصور.

«نعم، لقد عشت هناك طوال ستّ سنوات متواصلة».

استمرّ العجوز بمعاينة الصور واستطلاعها، وتساءل ثانية: «تبدو الحياة في المدينة متنوّعة وزاهية؟».

أوضح بافِل أنّ المدينة ليست بهذا الزهو الظاهر في الصور، لكنّ الفضل في ذلك يعود لمهارة المصوّر.

«إذاً هذه الصور ليست حقيقية!».

«بل حقيقية، ولكن...»، ثمّ طفق بافِل يوضح فكرته مجدّداً.

أغلق الألبوم ثمّ حدّق في المغيب وهمهم قائلاً: «تلّ الشيطان حقيقيّ، تلّ الشيطان...».

ثمّ تناولا فطائر الجبن والبسطرمة، واحتسيا النبيذ، وحدّقا مطوّلاً في مقتل الشمس. كانت تلك الأمسية ساكنة وهادئة بطريقة غير معهودة، ولم يسمعا سوى الأصوات النادرة لأجراس قطعان الماعز الخالدة للراحة في حظائرها.

«هيّا أرجوك، أخبِرني بحكاية أخرى!»، توجّه العجوز يوردو راجياً جليسه بافِل أن يقصّ عليه المزيد.

بدا الجيولوجيّ الشاب مستعدّاً لتلبية رغبة الراعي، مدفوعاً بروعة الوحدة الصافية وسط الآفاق المشرفة على الغرق في الظلمة وولادة النجوم في السماء. كلّ هذا منحه إلهاماً يصعب تجاهله. إلهامٌ قادر على أن يخلق من حكايةٍ ما الحكاية المثلى الآسرة.

بدأ يقصّ حكايته التي لا يعرفها إلا نزرٌ قليلٌ من الأصدقاء من دون تردّد، حكايته مع الراهبة ماريا. وكان من الواضح أنّه قد قرّر أن يقصّها للمرّة الأولى على مسامع الجدّ يوردو.

t.me/qurssan

حدث ذلك خلال إحدى الرحلات التي قام بها في ربوع بولندا، لإثبات صحّة نظرية جيولوجية تقدّم بها بروفيسور مقرّب وذو حظوة في نفس بافِل. كان عليه أن يكتشف في مناطق مختلفة وجود معدن نادر للغاية. كان البروفيسور مُقْعد حرب وغير قادر على البحث عن هذا المعدن بنفسه.

أعتقد أنّ البحث الجيولوجي كان مجرّد دافع ليسافر بافِل في أنحاء البلاد، وأنّ هذا الرحيل هو جزء من تجواله الدائم في أثر الفرس الجرباء.

حصل بافِل على بعض المال من المعهد، وهكذا حمل حقيبة صغيرة وكيس نوم، ومضى في طريقه بمحاذاة نهر فيستولا، وكان من الواضح أنّه يميل بطبعه للبحث والتنقيب. لا يمتلك بافِل طموحاتٍ كبيرة في حياته ولا يبحث عن تحقيق أهداف محدّدة، وهي عادةً ما يكرّس الإنسان حياته لتحقيقها. رغبته بالتحرّي والاستقصاء مرتبطة بفضوله للعثور على شيء أو حدث جديد، ولم يكن يوماً ضحية لهذا الهاجس الرومنطيقي، لينطلق بكلّ ما أوتي من عزمٍ وقوّة في وجهة ما، وإذا عثر على أثر يستقوي ويتبعه مثل كلاب الصيد.

«المهمّة هذه ممتعة للغاية»، ذكر بافِل مرّة هذه العبارة المفرغة من أيّ معنى. ومرّة باح له كوكو: «الوقت هو أكثر ما أخشاه، حين تصبح كلّ الأمور واضحة وتفقد القدرة على البحث. لك أن تتخيّل حجم المأساة إذا تعرّضت لهذه المشاعر».

«آه يا صديقي، أعتقد أن أميركا قد اكتُشفت منذ وقتٍ بعيد، لكن ليست أميركا هي محور الحديث بل عملية البحث عنها واكتشافها»، أجاب بافِل، وأردف: «حتى وإن تمكّنا من اكتشاف كلّ المعالم والأسرار فسنستمر بإعادة اكتشافها ثانيةً، لأنّ علينا أن نقوم بعملٍ ما في نهاية المطاف».

قد يبدو الأمر غريباً وغير متوقّع إلا أنّ بافِل تمكّن من العثور على المعدن النادر بجوار الدير الذي تقيم فيه الراهبة ماريا.

t.me/qurssan

رآها للمرّة الأولى في بقّالة القرية، كان قد ذهب لشراء لفائف تبغ وبعض الطعام، دخلت إلى البقالة مرتدية جلباب الراهبات الأبيض ومحجّبة بقلنسوة حسب متطلبات وتعاليم النظام الديني الصارم الذي تنتمي إليه روحاً وجسداً، وعلى صدرها يتدلّى صليبٌ فضّيّ كبير، الصليب نفسه الذي خلعتْهُ في ما بعد وأهدته لبافِل.

«راهبة!»، قال الجدّ يوردو، وأضاف: «رأيتهنّ من قبل ولا أدري ما نفعهنّ. أتفهّم أن تخضع لإرادة قرص الشمس لأنّه مرئيّ ومحسوس، أن تؤمن بالقمر. نعم، لأنّك تراه في السماء. أن تخضع للرياح. نعم، فهي محسوسة. لكن أن تخضع لشيء لا تسمعه ولا تراه فهذا أمرٌ يستعصي على الفهم!».

استمع إليه بافِل واستمرّ في حديثه: «أتعلم يا جدّي أنّ الصلبان تليق بذوات الصدور المسطّحة، الأثداء الكبيرة جميلة لكنّ الصلبان تتأرجح بعيداً عنها».

على الرغم من أنّ العجوز قد استمع والتهم كلّ كلمة تفوّه بها بافِل إلا أنّه على الأرجح لم يفهم بعدها الروحي.

بياض وجهها اليانع غير جذّاب كأنّها لم ترَ الشمسَ منذ ولادتها، ويمكنك مشاهدة بعض النمش على طرفي أنفها وبالقرب من وجنتها. أفاد بافِل أيضاً بأنّ سحرها وجاذبيتها متجسّدة في هذا النمش تحديداً. عيناها كبيرتان واسعتان، لونهما أخضر غامق وهي جميلة بحدّ ذاتها. اكتشف بافِل لاحقاً تلك النار الحارقة التي تعبّر عن إيمانها العميق بالخالق واحتقار غواية الحياة الدنيا. شعرها محجّب لكن بافِل توقّع بأنّه طويل وكثّ وأسود كما حاجبيها المتقاطعين، وعلى الرغم من جلباب الرهبنة إلا أنّ قامتها بدت رشيقة وعمرها لا يزيد على خمس وعشرين سنة.

أعتقد أنّ الجيولوجي الشاب لم يُعِرْها أدنى انتباه، وعبّرت نظراته عن فضول تقليدي، لكنّها قامت بحركة ما أو رسمت على وجهها انطباعاً غريباً، وربّما أطلق جسدها إشارة جذبت بافِل إلى عالمها. قد تكون المرأة المتخفّية خلف جلباب الراهبات قد أعلنت عن حضورها لوهلة، وقد تكون هذه المؤشّرات جميعها محض

t.me/qurssan

مصادفة.

«هل عثرتم على المعدن؟!»، سألته صاحبة البقالة.

«لا، لم أتمكّن من ذلك بعد».

«وهل تعتقد أنّك ستجده؟»، مازحته صاحبة البقالة.

لملمت الراهبة حاجاتها في كيس كبير، وكان من الواضح أنّها غير مهتمّة بحديثهما مستعجلةً الانطلاق بعيداً فوق دراجتها الهوائية، لكنّها كادت تُسقط الكيس لثقله، وسرعان ما هرع بافِل لمساعدتها واضعاً الكيس في الصندوق خلف الدراجة. أدارت رأسها جانباً من دون أن تنظر إلى وجهه وقالت ببرود: «شكراً»، ثمّ انطلقت مبتعدةً بدراجتها.

وقف بافِل على طرف الطريق يتابعها، ثمّ اقتربت منه صاحبة البقالة. ضحكت وقالت: «بعضهم يقولون بأنّ الخالق رجل».

شعر بافِل بأنّ واقعةً قد أعلنت بدايتها وعليه متابعتها.

«لكَ أن تصدّقني يا جدّي، في تلك اللحظة بالذات شعرت أنّ شيئاً ما يقترب، شيئاً يهبط من السماء»، قال بافِل للعجوز يوردو.

الطريق إلى الأعلى متعرّج ما بين أحراج الصفصاف، وعلى بعد كيلومتر واحد هناك حيث ما يزال جلباب الراهبة الأبيض مرئيّاً، كانت تقف إلى جانب دراجتها الهوائية بلا حولٍ ولا قوّة، وحين رأت الرجل يقترب منها، سارعت بالمضيّ ثانية مع دراجتها، تحمل في إحدى يديها كيس المشتريات وبالأخرى تحاول دفع الدراجة الهوائية.

لحق بها بافِل بسرعة وعرض عليها المساعدة، لكنّها تمتمت ببعض الكلمات ولم تجُدْ عليه ولا حتّى بنظرة. وعلى الرغم من ذلك عالج بافِل المشكلة الفنية، فقد كانت سلسلة نقل الطاقة قد خرجت من محورها وعطّلت حركة الدراجة. جلست الراهبة في ظلّ شجرة صفصاف وطفقت تقرأ كتيّباً خلال انشغاله بإصلاح الدراجة. كانت في منتهى الهدوء والبرودة وتهيّأ له أنّها تكاد لا

t.me/qurssan

تحتمل وجوده. في لحظة ما التفتت إليه وحدّقت في عينيه مباشرة. لاحظ أنّ في نظرتها غريزة بدائية، أظهرت له الراهبة كراهيةً كامنة، وكانت على أتمّ الاستعداد لشتمه بكلمات بذيئة لكنّها أبقت على صمتها.

«كانت الأمور تسير على أحسن ما يرام»، قال بافِل للجدّ يوردو.

أدار العجلة وساعدها لتصعد فوقها، ثمّ تابعها بعينيه منطلقةً نحو الدير.

لم يتوقّف عن التفكير بها طوال النهار والمساء، شعر بسرور بالغ وهو يتذكّر وجهها المرصّع بالنمش وعينيها الخضراوين. كان على بيّنة من تبعات تلك البداية المثيرة حين يتمكّن من التقاط وتحسّس بشائر فرح اللقاء الأول. دمّه تحرّك في أوصاله بسرعة أكبر من المعتاد، وشعر بأنّه جاهزٌ بالكامل لطرق أبواب النشوة. اجتذبته ليس فقط بجلبابها وحجابها، بل بتلك الغريزة البدائية الظاهرة في معالمها، اجتذبته أيضاً بتعصّبها وتطرّفها، وهذا ما أدركه في وقتٍ لاحق.

في اليوم التالي تخلّى عن البحث عن المعدن وكرّس كلّ وقته للبحث عنها. قال بافِل للراعي العجوز الذي كان يستمع بانتباهٍ بالغ لحكايته، وللمرّة الأولى تدخّل قائلاً: «كان عليك أن تحاصرها وتقطع طريقها».

«نعم، هذا ما فعلته يا جدّي».

راقب بافِل الطريق إلى الدير طوال فترة ما بعد الظهر في المكان نفسه حيث افترقا في اليوم السابق، وانشغل طوال الوقت بتدخين لفائف التبغ ولم يخِب ظنّه. بعد قليل ظهرت الراهبة من المفرق ذاته، وكان من الواضح أنّها متوجّهة إلى السوق. حين وصلت إلى المكان الذي أصلح بافِل درّاجتها الهوائية، وقفت فجأة ولاحظ هو حيوية غير مألوفة في معالم وجهها. قفز بافِل من بين الأعشاب ثمّ وقف أمامها مندفعاً وبجرأة كبيرة.

«هل أُصيبت الدراجة بعطل آخر؟»، سألها بافِل.

t.me/qurssan

«لا!»، صاحت بحدّة، ثمّ ركبت الدراجة وانطلقت بسرعة مبتعدة عن المكان.

منذ ذلك اليوم أخذ بافِل يلاحقها بإصرارٍ غريب. حاول مرّة أخرى أن يقطع طريقها، لكنّها هربت من هناك بسرعة من دون أن تلتفت إلى الوراء.

في المرّة الثالثة حاول أن يركض خلفها وكاد أن ينجح، ركض بموازاتها صائحاً: «قفي ولو للحظة واحدة!».

لكنّها أدارت العجلة بكلّ ما تملك من قوّة وتمكّنت أخيراً من الفرار.

حاول في الأيام التالية أن يوقفها ويحادثها ولكن بلا نتيجة، حتى خطرت له فكرة بدت للوهلة الأولى طفولية. قرّر اعتراض طريقها بتكويم الحجارة والأخشاب خلف المنعطف مباشرة وجهّز لها مفاجأة أخرى، فقد أوشك على قطع شجرة خلف المنعطف لمنعها من الهرب إلى الخلف بدراجتها والعودة إلى الدير.

وقفت أمام ركام الحجارة وفي اللحظة نفسها انهارت الشجرة خلف ظهرها. خرج بافِل ووقف أمامها. ارتجفت الراهبة من الهلع والغضب.

«دعني وشأني!»، صاحت غاضبة وكرّرت رجاءها مصوّبة إليه نظراتها الخضراء كأنّه مبعوث الشيطان.

اقترب منها وقال: «لماذا تهربين منّي؟ أرجوك أن تتوقّفي عن الهرب!».

أبقت على صمتها، وبان على وجهها المتجمّد تلك الإشارات الغريزية البدائية التي يعرفها بافِل جيّداً. في تلك اللحظة بدت كوحشٍ صغير على وشك الانقضاض في أيّ لحظة مقبلة على غريمه. وكان هو يقف أمامها وينظر إلى وجهها ويبتسم.

«ماذا تريد يا سيّد؟»، قالت بصوتٍ بارد خالٍ من الحيوية.

t.me/qurssan

«أريد أن أرى شعرك»، قال بنبرة جادّة.

أُصيب بافِل بالدهشة حين رآها تنزع الحجاب عن رأسها صارخة: «انظر.. ها هو ذا شعر رأسي أمامك!»، تهادى شعرُها الفحميّ الأسود الكثيف فوق جلبابها الأبيض. لم تعارض في تلك اللحظة مبادئ عقيدتها المتزمّتة.

شاهد بافِل أمامه وجهاً بديعاً وعينين خضراوين تلمعان بتحدٍّ صارخٍ، كأنّ كلّ خليّة في جسدها قد أدركت كنه أنوثتها الكامنة الصارخة. لم يُخفِ بافِل انبهاره، فقد باغتته بتلك الخطوة، لكنّها سرعان ما أخفت شعرها تحت القلنسوة بحركة عاجلة، ثمّ تجاوزت كوم الحجارة أمامها ومضت في الطريق المنحدرة، ولم تظهر له بعد ذلك أبداً.

«الحقيقة يا جدّي أنّ الحكاية قد بدأت من هذه الحادثة تحديداً. في البداية كنت أنوي التسلية واللهو معها، حتى لحظة نزعها للحجاب عن رأسها، عندئذٍ أدركت على الفور أنّني على استعداد للقيام بأيّ شيء مقابل اكتساب قلبها، وكنتُ على قناعة بأنّها هي أيضاً على استعداد للتضحية بأغلى ما تملك من أجلي».

«لماذا هربت إذاً؟»، سأل العجوز.

«أنتَ محقّ، كان عليها ألّا تستعجل الرحيل يا جدّي».

بحث بافِل عنها في كلّ الأنحاء وانتظرها مطوّلاً في أماكن مختلفة من الطريق من دون فائدة. حقيقة اختفائها وتفضيلها عدم الظهور أمامه منحه دافعاً ونبضاً لا يخبو للبحث والوصول إلى مخدعها. في تلك الأثناء شاهد بافِل راهبات أخريات يشترين من البقالة كلّ احتياجات الدير.

«حان دورك الآن لتذهب إليها بنفسك!»، قالت صاحبة البقالة حين قصّ عليها بافِل مغامرته مع تلك الراهبة.

«هل تعرفين اسمها على الأقل؟».

«الأخت ماريا. يمكن الدخول إلى الدير من جهة الجدران الخلفية

t.me/qurssan

الموجودة فوق النهر مباشرة»، أوضحت صاحبة البقالة لبافِل تفاصيل الموضع.

«وكيف سأتمكّن من الدخول إلى الدير؟»، سألها بافِل ثانية.

«لا، هذا كثير! أنتَ على ما يبدو تنتمي إلى الفئة التي تعرفُ جيّداً كيف تتخطّى الحواجز»، قالت ضاحكة.

قبع بافِل في الأيام القليلة التالية قبالة الدير، وأيقن عدم إمكانية دخول أيّ شخص أجنبي إلى هناك من المدخل. شعر بافِل بأنّ كلّ ما قام به خلال تلك الفترة كان جديداً ومعيباً حتى بالنسبة إليه ولمبادئه المنفتحة، لكنّه شعر بالغبطة والرضا عن ذاته. أكثر الأمور المضحكة التي قام بها تمثّلت بتسلّقه لشجرة عالية لمراقبة المرافق الداخلية للدير. الراهبات يتهادين بحرّيّة في ساحة الدير الخارجية، لكنّ ناموس الحياة في الداخل صارم وقاسٍ، واحتاج بافِل إلى مزيدٍ من الوقت ليعرف تفاصيل حياة الرهبنة. شاهد صالة الطعام وغرف الراهبات كأنّها زنازين منفردة، شاهد مبنى الكنيسة والمذبح وكلّ مرافق الدير الكنسي الحديث، كما شاهد ماريا نفسها، وكان قادراً على تمييز خطاها وهيئتها ما بين مليون راهبة، وتذكّر جيّداً الباب الذي خرجت منه، ثمّ دخلت عبره إلى مهجعها.

ثمّ حان الوقت لأكثر مقاطع هذه القصة الرومنطيقية إثارة، فقد كان عليه أن يتخطّى الجدران المحيطة بالدير.

في إحدى الليالي كان البدر يضيء جدران الدير البيضاء وساحته المغطّاة بالبلاط. انتظر حتى أُطفئت آخر أضواء المهاجع والمرافق، وبقيت شموع الكنيسة وحدها تنوس في الداخل. تمكّن بافِل من القفز فوق الجدران مستخدماً حبلاً ومطرقة وكلّابات خاصّة لتسلّق جبال الألب الوعرة، وبعد لحظات وجد نفسه في ساحة الدير القمرية الخاوية.

«توقّعت في تلك اللحظة أنّ أنوار الدير ستضاء من كلّ الأنحاء، وستهاجمني الراهبات المسنّات، ثمّ سيقمن بخصيي وإعطاب

t.me/qurssan

رجولتي عقاباً على جرأتي»، قال بافِل للعجوز يوردو.

أجواء الدير غامضة وساكنة كأنّ الخالق يرغب هو أيضاً بمعرفة ما سيحدث. انطلق بافِل حافياً إلى الباب الذي بات مألوفاً لديه.

طرق الباب برفق وانتظر الدهر كلّه لينفتح طرف الباب بهدوء، ثمّ ظهرت ماريا في شبه العتمة ترتدي ثوب نومٍ وشعرها منثور فوق كتفيها، صُدمَت حين رأته مع أنّها أقسمت لاحقاً إنّها قد انتظرت حضوره، وكانت متأكّدة من ظهوره أمامها في تلك الليلة بالذات.

أغلق الباب خلفه وضمّها، انتفض جسدها المنقبض في حمّى عصيبة. قبّلها وداعبها حتى تمكّنت من التحرّر من وهل المفاجأة، استعادت وعيها ورباطة جأشها، ثمّ ارتجف الجسدان بقوّة وتعرّ جميل. كانت ليلة ماجنة واعية، سلّمت له نفسها كما يشتهي، ثمّ هربت معه، وفي الطريق لم تتوقّف عن ضربه وتقبيله، تبكي ثمّ تضحك، تلعنه وتباركه.

«أنت هو الشيطان. لا، لا. الشيطان هو أنا، الشيطان في داخلي!»، صاحت ماريا بين أحضانه.

«لا يهمّني أين يوجد الشيطان»، قال بافِل وانهمر يقبّل جسدها.

غادرا الدير في عتمة الليل بخفّة من دون أن يشعر بهما أحد. كانت ترتدي ثوباً خفيفاً وحذاءً غير مريح للاستخدام الداخلي. للمرّة الأولى تحرّر شعرها من قيود القلنسوة وبان قدّها الجميل بعد أن خلعت الجلباب الأبيض.

عاشت معه في الخيمة واقتسمت معه كيس النوم، وبعد شهرٍ عادا إلى وارسو. اجتذب وجهها الموسوم بمعالم القوّة والصرامة والعاطفة المفرطة أنظار الكثيرين. وكوكو أيضاً عشقها والكثير من أصدقاء بافِل أولوها اهتماماً كبيراً بل وغازلوها، لكنّها أبقت على سلوكها الحادّ المتوحّش. شخصيتها وطبائعها غريزية، وكانت تحبّه بجنون وتغار عليه وترتجف خوفاً من فقده، لذا حاولت جاهدة عزله عن العالم الخارجي الذي كان يعيش فيه مقابل أن تقدّم له نفسها بالكامل.

t.me/qurssan

«جدّي، لو كان للحبّ وجهٌ لكان من دون شكّ وجهَ ماريا».

للمرّة الأولى شعر بافِل بأنّ شخصاً يكرّس وينكر نفسه من أجله هو. ربّما لأنّها تنتمي إلى تلك الفئة التي تحتاج الانتماء إلى عالم شخصٍ آخر. لكنّ اندفاعها وتعلّقها به كان قويّاً إلى حدّ حثّها على المضيّ إلى نهاية مفجعة في نهاية المطاف.

«ما رأيك أن نموت معاً؟! إذا كنت تحبّني حقاً فعليك أن توافق على الموت الآن، في هذه اللحظة. هل توافق؟!»، قالت ماريا بنبرة واثقة.

«لماذا يجب علينا أن نموت؟!».

«لأنّني أرغب أن نبقى معاً إلى الأبد، لا أريد أن أنفصل عنك، لا أريد أن أفقدك بعيداً عن ناظريّ، لا أريدك أن تكون شيئاً منفصلاً. دعنا نمُت لنصبح كياناً واحداً!».

في الواقع لم تكن راغبة باقتسام بافِل مع أيّ شيء أو أيّ شخصٍ آخر، وبضمن ذلك مهنته وأصدقاؤه، وبلغ بها الأمر أن ترفض تقاسمه مع ذاته. باتت عاجزة عن قبول استقلاليته وطموحه الأبديّ للتنقّل الحرّ وإرضاء كلّ رغباته الطارئة. أدّت عاطفتها العارمة المحمومة وعطاؤها وولاؤها المطلق في تلك الأثناء إلى شعورها بعدم الرضا والاكتفاء. جعلت هذه الوضعية حياتها مع بافِل شاقّة للغاية وصعبة الاحتمال. كانت راغبة، على ما يبدو، في الاستعاضة عن الربّ ببافِل، وعلى الأرجح لم تكن على استعداد لقبول انعدام المثالية المرجوّة في شخصيّته.

في إحدى الأمسيات وبعد عودته من المعهد العالي لم يجدها في البيت، وكانت قد تركت على السرير صليبها الفضّيّ.

بعد بضعة أشهر عرف بأنّها قد سافرت إلى خارج البلاد ولم تعد نهائياً إلى بولندا.

«كيف هذا، تقصد أنّها لم تعد نهائياً؟!».

t.me/qurssan

«لا، لم تعدْ أبداً. ماريا تنتمي إلى تلك الفئة التي لا تعود».

تفكّر العجوز بعمقٍ بعد أن استمع لتفاصيل حكاية الراهبة ماريا. ثمّ سأل فجأة: «وأين هذا الصليب الآن؟!».

«أحمله معي دوماً». وقف بافِل وانطلق إلى خيمته ليُحضر الصليب الفضّي الذي رآه ذات يومٍ على صدر الراهبة ماريا.

تناوله العجوز يوردو وقلّبه بتأنٍّ بين يديه. تسلّل إلى وجهه نورٌ باهتٌ وهمهم بصوتٍ يشوبه الغموض: «ماريا!».

هناك في البعيد جهة الحظيرة ثغت ماعز، ثغت بقلقٍ واضطراب. لم يحرّك العجوز ساكناً، وقبل أيام كان على أتمّ الاستعداد ليهرع إلى الحظيرة لمعاينة ماعزه المريضة.

لاحظ بافِل يوماً بعد يوم أنّ العجوز يخرج مع قطيعه في ساعة متأخّرة من النهار ويعود قبل المعتاد في المساء، ويُفاجأ به بافِل جالساً تحت شجرة البلّوط منتظراً بفارغ الصبر حضور الجيولوجيّ الشاب.

«هيّا يا رجل، لماذا تأخّرت؟!»، يصيح الراعي العجوز.

«لكنّك يا جدّي أعدت القطيع باكراً نهار اليوم!»، أجاب بافِل مستغرباً.

«وما خطب القطيع يا ابني؟ توقيت العودة بلا معنى. تناولت ماعزي الكلأ والأعشاب على عجل، ملأت بطونها وقُضي الأمر. أخبرني بالمزيد عن مدينتك!».

كان بافِل بحاجة هو الآخر إلى قصّ حكاياته ليتذكّر تفاصيل أحداثها. كان يحبّ عشيقاته بكلّ جوارحه ليس فقط في عزلته في تلّ الشيطان، فكلّ واحدة منهنّ تمتلك مكانتها الحقيقية لديه، برحابة الحرية وعبودية الحبّ كلّه.

كوكو أيضاً أكّد أنّ بافِل كان يتعامل مع ذاته في كلّ قصّة حبّ عايشها بتهكّم وسخرية. أعتقد أن هذه المشاعر وليدة العلاقة ما

t.me/qurssan

بين العطف والرجولة، وأنّ هذه السخرية تهدف إلى حماية مشاعر الحنوّ والعطف لديه.

استمع الراعي العجوز إليه باهتمام بدا غير طبيعيّ، وأخذ كلّ مساء يتصفّح ألبوم الصور السياحي لمدينة وارسو، يمدّ أصابعه المتشقّقة في مداخل الشوارع الظاهرة في الألبوم ومخارجها، ويستوعب أدقّ التفاصيل الواردة في قصص بافِل العاطفيّة.

اختفت تلك الابتسامة الساخرة التي كانت لا تفارق انطباعاته الدالّة على سلامته وسوية روحه، وبدا مؤخّراً كطفلٍ مشدوه. عيناه الكبيرتان الحكيمتان تحدّقان بحيرة إلى الأمام كأنّه يدقّق النظر في لوحاتٍ افتراضية. فقدت نظراته حيويّتها ومداركها، وانفتحت روحه في أعماق سماء تلّ الشيطان.

راقب بافِل باستغراب التغيّر الجذري الذي طرأ على شخصية الراعي ذي الاثنين والثمانين عاماً، واعتقدَ في بادئ الأمر أنّ بعض الهموم والمشاغل قد ساهمت في ذلك. وبافِل في الوقت نفسه غالباً ما يكون ساهماً ومنغلقاً، ولم يدرك ما يعتمل حقيقةً في نفس العجوز.

أخذ القطيع ينطلق في وقتٍ متأخّر يوماً بعد يوم ويعود أبكر وأبكر في المساء. قصّ بافِل عليه بعض الحكايات العاطفية العابرة للغاية، وبهذا أتى على كلّ ما لديه من خزين الذاكرة والعجوز يصرّ على الاستماع للمزيد.

«هيّا، أخبِرني بمزيدٍ من الحكايات يا بافِل!».

«لقد أخبرتك بكلّ شيء».

«إذاً، قصّ عليّ كلّ شيء من البداية، لو سمحت!».

هكذا أخذ بافِل يقصّ عليه حكاياته الغرامية والعجوز جالس كعادته يستمع إليه بانتباه والغليون لا يفارق فمه.

من البديهيّ ألّا يتمكّن أيّ حكواتي من إعادة سرد قصصه حرفياً كما في المرّة الأولى. قد ينتقص شيئاً أو يضيف تفاصيل منسيّة،

t.me/qurssan

وحين كرّر بافِل حكايته مع باربرا نسي في بدايتها أن يذكر أنّها قد رفعت يديها إلى الأعلى، وأنّ مياه النافورة تساقطت فوق كتفيها.

«لا، لا. الحكاية غير ذلك يا بافِل!»، صاح العجوز محاولاً تصحيحه، وأضاف: «لقد نسيت أن تذكر أنّها وقفت ويداها مرفوعتان إلى أعلى. عليك أن تتوخّى الدقّة في حديثك!». نظر إليه بافِل بدهشة واستمرّ يقصّ، وسرعان ما قاطعه العجوز ثانية: «يبدو أنّك قد نسيت، الحكاية ليست كذلك!».

«ربّما، هل لك أن تذكّرني؟!».

«لقد نسيت أن تقول إنك نظرتَ عبر الشرفة وسألتكَ هي: هل ترغب بأن نخرج عبر أسطح المدينة؟».

ضحك بافِل وأجاب: «لكن هذه تفاصيل صغيرة وأنا لا أتذكّرها جميعها جيّداً».

«لكنّي أتذكّرها. هيّا أكمل حديثك!»، أجاب العجوز بثقة.

كان بافِل مندهشاً للغاية ولم يخطر بباله أنّ العجوز استمع إليه واستوعب كلّ ما جاء في قصصه العاطفية.

في تلك اللحظة أصبحت قصص الحبّ مشتركة، وإذا ما نسي بافِل شيئاً يسارع العجوز بمقاطعته وتذكيره ثمّ يتابع الحكاية بدلاً من الجيولوجيّ الشاب. بدا بافِل مبهوراً للغاية لأنّ العجوز قد حفظ جيّداً كلّ التفاصيل التي وردت في قصصه العاطفية. وحين يتحدّث العجوز يوردو يلتزم بالنبرة نفسها التي لازمت بافِل خلال سرده السابق للحكاية، بل ويحافظ على فترات الصمت ما بين المقاطع المختلفة، والإيماءات ذاتها ووهج النظرات كأنّه يرى شخصياً في تلك اللحظة نساء وارسو.

أمّا في الأمسيات التالية فكان بافِل يبدأ الحكاية فقط، ثمّ يترك المجال للعجوز ليكملها، وكان قادراً على ذكر أسماء الأشخاص والأماكن بسهولة كأنّه يعرف جميع الذين وردوا في الحكاية

t.me/qurssan

متقمّصاً شخصية بافِل بالكامل. تقاطيع وجهه المتفاعلة مع الأحداث تؤكّد معايشته وتفاعله مع كلّ خلجة في عالم المدينة المشبعة بالأضواء، واستمتاعه بحضور حسناوات وارسو.

لي أن أتخيّل كيف قصّ العجوز بصوته على سبيل المثال الحدث التالي:

«... بصراحة.. شعرت في تلك اللحظة.. هكذا، كنت على قناعة بأنّ حدثاً رائعاً ما يقترب منّي.. شعرت به في الهواء من حولي...».

«أنت تقصّ الحكاية أفضل منّي بكثير. كأنّك كنت هناك معنا. هل تتهيّأ كلّ هذه التفاصيل يا جدّي؟».

«بل أتذكّرها»، أفاد العجوز يوردو بطيبة.

وعندما يكرّر حوار النساء في تلك الحكايات، كان وجه العجوز يضيء ويمتلئ حيوية ليطبع على محيّاه انطباعات بافِل آنذاك، ليصبح في الوقت نفسه جزءاً من الحكاية، ويشارك في الحوار. وأكثر ما كان يعجبه في عملية القصّ جرأة بافِل وإقدامه وقدرته على الاندفاع إلى الأمام بابتسامة سعيدة لا تغيب عن وجهه.

«أنتَ رائع يا جدّي!».

أُعجب العجوز يوردو بماريا من بين نساء بافِل الأربع. تنهّد الراعي بعمق وقال بلهجة تنمّ عن اهتمامه البالغ: «أعِد على مسامعي حكاية الراهبة!».

حتى إنّه جادل بافِل بشأن أجمل تلك النساء، وسأل بافِل في إحدى الأمسيات: «من هي الأجمل بينهنّ؟».

«إيڤا»، أجاب بافِل بشيء من التردّد.

«هذا غير صحيح، لا يمكن لجمال إيڤا أن ينافس سحر ماريا الأخّاذ. إيڤا طفلة لكنّ ماريا شأنٌ آخر مختلف تماماً»، اعترض العجوز على الفور.

حين غادر بافِل ليخلد للنوم فضّل العجوز البقاء بالقرب من

t.me/qurssan

خيمته وحيداً حتى الصباح يدخّن التبغ في الغليون طوال الوقت. وسمعه الجيولوجيّ بين الوقت والآخر يردّد: «آه يا ماريا!».

كانت الشمس قد أشرقت منذ وقتٍ بعيد والعجوز لم يغادر مكانه، يدخّن ويحدّق في الفضاء هناك حيث تركه بافِل في الليلة السابقة.

في أحد الصباحات سأله بافِل بعد عودته من ينبوع الماء: «لماذا توقّفت عن استقبال الشروق يا جدّي؟».

«لماذا عليّ أن أستقبلها؟! لقد فعلت ذلك طوال حياتي، لكنّ الشمس لم تستقبلني ولا حتّى مرّة واحدة».

«هل أنت بخير؟».

«لا أعاني من آلام، أنا بخير! وأنتَ عدْ هذا المساء باكراً»، أجاب العجوز.

«حسناً».

«لنتحدّث!»، قال العجوز برجاء.

عزا بافِل هذا التغيير في شخصية العجوز إلى أزمة نفسية مؤقتة. لكنّ الدهشة لم تغادره لأنّ العجوز خلال الأسابيع القليلة التالية أهمل بالكامل قطيعه، واكتفى بإخراج القطيع إلى الينبوع، ثم يتخلّى عنه ويتركه يتصرّف كما يشاء. يجلس في مكانٍ هادئ ويدخّن محدّقاً في الفضاء أمامه. تقترب منه أحياناً إحدى ماعزه المحبّبة، تلثم أطراف أصابعه ويداعبها بحنوّ. كان هذا التقارب والودّ يترك في نفسه سعادة بالغة في ما مضى، أمّا الآن فيداعبها ويلهو معها قليلاً، ثمّ يطلب منها الابتعاد عنه.

في المساء وما إن يشاهد الجيولوجيّ قادماً من الأفق حتى يسارع بالذهاب إلى شجرة البلّوط.

وحدث مرّة أن تخلّى عن قطيعه وعاد من المرعى وحيداً.

t.me/qurssan

«أين القطيع يا جدّي؟!»، سأله بافِل.

«في المرعى».

«لماذا تركته وحيداً؟».

«لأنّني لا أرعى العشب»، أجاب العجوز بحزم وبطريقة لا تقبل الجدل. وسأل بافِل: «هل ستنهي أعمالك في التلّ قريباً؟».

«نعم، لم يبقَ سوى القليل».

«وهل ستغادر التلّ؟».

«نعم، سأغادر التلّ».

«وهل ستعود إلى هنا في ما بعد؟».

«لا، لن أعود، مع أنّي ألِفت الحياة هنا»، أجاب بافِل مبتسماً.

«ما الذي ألفته هنا، الأفاعي أم الحجارة أم الماعز، وربّما أنا؟!».

هزّ الراعي العجوز رأسه دلالة على عدم تصديق كلماته.

تنقضي الساعات ما بين ثغاء الماعز وهدير الفحول التي توقّف العجوز نهائياً عن الاعتناء بها. لم يعدْ يذكر أسماءها واختفت الأعشاب الشهية الطازجة من جعبته. توقّف عن النظر إلى قطيعه بشغفٍ كما كان عليه الحال من قبل، وحتّى المحظية فيدا لم تعد قادرة على لفت أنظاره. وفي المساء يحشر الماعز عنوة في ركن الحظيرة، ثمّ يوصد بوّابتها وينطلق نحو شجرة البلوط، وأخذت عيناه الحكيمتان تومئان بطريقة مختلفة.

توقّف عن النوم خلال ساعات الليل، وكان يضطجع تحت شجرة البلوط في حالة سهاد دائم غير منقطع، وفي كلّ مرّة يستيقظ خلالها بافِل يرى نار الغليون تخبو وتضيء ثانية. وفي إحدى المرّات سمع الجيولوجيّ الشاب صوت العجوز بالقرب من كيس نومه يصيح: «أنا ظمئ، أنا ظمئ!».

في الأثناء كان الفتى المساعد قد حضر يحمل على ظهر البغل

t.me/qurssan

مؤناً غذائية للجيولوجي. في آخر مرّة أخبره بأنّهم سيرسلون بعثة جديدة لمساعدته فور انتهاء الموسم السياحي.

لم يعد بافِل يتوقّع قدوم مساعدين، وتعوّد على العمل وحيداً في تلّ الشيطان. أنهى أعمال المسح والتخطيط وانشغل بدراسات جيولوجية أخرى. تمكّن من بناء علاقة متوازنة مع صحراء التلّ الصخرية، وكان ينام بسكينة على الرغم من الأصوات الشيطانية، كما تعوّد وجود الأفاعي بقربه وقد أخذت تُكثر من زيارته في مخدعه. توقّف عن قتلها وغالباً ما يكتفي بقذفها خارج كيس نومه. كما اكتسبت بشرته سمرةً يانعة لتعرّضه المستمرّ لأشعة الشمس، وبدا كأنّه هنديّ أحمر. أصبحت يداه العريضتان خشنتين للغاية، وتسطّحت أصابعه كأصابع العجوز يوردو. وأبقى على عادته بالاستيقاظ قبل شروق الشمس بعشر دقائق، والاستحمام بمياه الينبوع الباردة، ثمّ يحتسي قهوته ويتوجّه إلى موقع العمل.

«لقد مهّدتُ الطريق في هذا التلّ لبعثة أخرى»، قال بافِل.

لا أدري ماهيّة مشاعره لكن يجب أن نثق بكلماته التي باح بها بعد عودته إلى القاعدة الجيولوجية الرئيسية في المدينة.

«بدأت الحياة تعجبني في التلّ»، أسرّ للعجوز الذي أصبح أكثر حزناً وغارقاً في التفكير، وغالباً ما كان يقف عند قمّة أحد التلال ويبقى على حاله تلك مرتكزاً على عصاه لساعات طويلة، وأحياناً يحادث نفسه، وأخرى يصمت محدّقاً في العدم واللانهاية. ربّما كشفت له سماء تلّ الشيطان الواسعة للمرّة الأولى شيئاً ما لم يعرفه من قبل. وفي المساء يستقبل صديقه الشاب بكآبة. لا يجيب عن أسئلته ويرفض تناول طعام العشاء، كان يبدو خارج الإطار العام للحياة ومتغيّراً إلى حدّ الفزع.

يشعّ وجهه ويمتلئ بحيوية حين يتحدّث بافِل عن نساء وارسو، كأنّ دماءً طازجة تدفّقت للتوّ في شراييِنه، وتلمع عيناه بفرح وثقة ويبدو أكثر شباباً وقوّة.

t.me/qurssan

في رحلته الافتراضية عبر شوارع المدينة وبمحاذاة البحر وعند مجرى النهر، هناك حيث كان من المتوقّع أن تظهر الراهبة ماريا.

ويبقى في منتصف الليل وحيداً وأكثر حزناً وغمّاً.

في إحدى المرّات نظر بافِل إلى تاج شجرة البلوط بإعجاب وقال: «كم من الأمور والأحداث شاهدت هذه الشجرة!».

أمّا العجوز فابتسم بحسرة وأجاب على الفور: «شجرة البلّوط شاهدت الكثير من الرعاة وجيولوجيّاً واحداً».

تعامل بافِل مع هذه الكلمات كمديح لشخصه، لكنّه اكتشف المعنى الحقيقيّ الآخر في مرحلة متأخّرة للغاية.

بقيت ذكرى ذلك اليوم حاضرة في ذهن بافِل، وغالباً ما كان يستعيد أدقّ التفاصيل لمعرفة آثار ما حدث ومبرّراته.

شاهد العجوز يوردو حاسر الرأس في الأفق يستقبل خيوط الشمس في الصباح ويتمتم بكلماته الغامضة، ثمّ شرع يغنّي. كان صوته خشناً ومبحوحاً يليق بحنجرة عجوز، وبدت الأغنية شبيهة بتعويذة القربان عند الذبح. غنّى مقاطع متتالية وصوته متوجّس يوحي بشؤم مقبل يتردّد كأجراس الكنائس في صمت تلّ الشيطان المروّع، لكنّ المقاطع المغنّاة مشبعة بنقاءٍ فريد وطاقة هائلة. أخذ العجوز ينحني تدريجياً خلال أدائه للغناء، ثمّ ركع أخيراً على ركبتيه. عندئذٍ سمع بافِل كلمات معدودة وواضحة: «تعال، أنا الآن مُعَدّا!».

تركت كلمة «مُعَدّ» انطباعاً قوياً لدى بافِل، ولم يدرك وقتذاك لماذا لم يستخدم كلمة «مُستَعِدّ» أو «جاهز».

ثمّ هبط عن التلّ، وحين رأى بافِل طلب منه الاقتراب.

«أتدري، لقد رأيت ليلة الأمس الفرس الجرباء البيضاء!»، قال العجوز على الفور.

«هل حلمتَ بها؟»، سأل بافِل.

t.me/qurssan

«لا، بل رأيتها بأمّ عيني. الفرس الحقيقية مرّت هناك في الأعلى، عند الحافّة مباشرة، وكانت تعدو وتعدو.. بيضاء لامعة.. بلا ذيل. ذهبت هناك في الخلف.. لكن عليك أنتَ أيضاً أن تراها كيف تعدو.. من دون أن تُحدث حوافرها أيّ ضجيج.. مرّت هكذا كأنّها روح»، قال العجوز متأثّراً.

لم يعرف كيف يردّ على الراعي العجوز واكتفى بالضحك.

«أخبرك الحقيقة، تملّكتني رغبة باللحاق بها أينما توجّهت».

«هل تريد مغادرة تلّ الشيطان يا جدّي؟».

«من يدري!»، أجاب العجوز.

حضر ليوبتشو في ذلك اليوم المشؤوم حاملاً معه بعض الطعام للعجوز يوردو، وكان بافِل عائداً من ينبوع الماء حين سمع العجوز يقول للفتى بصوتٍ واضح: «ستذهب هذا المساء من دون تأخير إلى العمدة لتخبره أنّ العجوز يوردو مريض، ويريد أن يحضر بصحبة طبيب إلى الحظيرة. اطلب منه أن يأتي عند العصر، تعالَ أنتَ معه أيضاً. هل فهمت جيّداً ما أقوله لكَ؟».

هزّ الفتى رأسه دلالة على استعداده لتنفيذ مطالب العجوز، ثمّ انطلق وحماره مبتعداً. عندئذٍ صاح به يوردو ثانية: «انتظر!».

شاهد الجيولوجيّ كيف هرع العجوز إلى كوخه ليحضر حزمة من الأوراق النقدية.

«خذ هذا المال هدية منّي لك وحافظ عليه»، ناوله العجوز حزمة المال. تناولها الفتى مذهولاً، وضعها في الجعبة على ظهر الحمار وابتعد عن التلّ.

«جدّي، أنت فعلاً مريض!»، قال بافِل بقلق.

«أنا في الثانية والثمانين من العمر»، أجاب العجوز بحدّة وحزم.

كان بافِل على وشك الذهاب إلى موقع العمل حين دخل العجوز إلى خيمته، ثمّ ظهر يحمل بيده فأساً قديمة. نظر إليه

t.me/qurssan

الجيولوجيّ مستفسراً.

«أريد منك أن تقطع شجرة البلوط نهار الغد».

«ماذا دهاك يا جدّي؟!»، أجاب الجيولوجيّ الشاب متشكّكاً بسلامة قواه العقلية.

«غداً تقطع شجرة البلّوط من دون نقاش»، قال العجوز يوردو وترك الفأس في خيمة بافِل، ثمّ غادر إلى كوخه.

شعر بافِل بقلقٍ شديد بعد أن لاحظ التغيّر الكبير الذي طرأ على العجوز، ولم يستعد هدوءه إلا بعد أن شاهده ينطلق مع قطيعه إلى المرعى كأنّ الأمور قد عادت لطبيعتها المألوفة.

عاد العجوز مع قطيعه في وقتٍ متأخّر للغاية، للمرّة الأولى يفعل ذلك منذ زمنٍ طويل، ويبقى في البراري بعد غروب الشمس بساعات. ذهب على الفور إلى خيمة بافِل وقال له مبتهجاً: «أنتَ الليلة يا بافِل ضيفي. سنحتفل، نعم سنحتفل!».

مدّ العجوز مجدّداً الحصير الملوّن تحت الشجرة، أشعل بالقرب منهما ناراً متوهّجة بديعة، ثمّ وضع كلّ ما يمتلك من الطعام على الحصير. ذهب بعد ذلك إلى الحظيرة كما في الأيام الأولى من قدوم بافِل إلى التلّ وأخذ ينادي ماعزه بالاسم واحدة تلو الأخرى ليطعمها تلك الأعشاب الطازجة اللذيذة من جعبته، ثمّ ترك الحمار يجول بحريّة من دون لجامٍ عند ينبوع الماء.

نفّذ العجوز بالتفصيل كلّ الطقوس المألوفة قبل أن يجلس إلى المائدة الممدودة برفقة بافِل. كان مرحاً ومستثاراً كأنّه يجهّز نفسه لحدث سارّ للغاية.

«أنت رائع يا جدّي!»، صاح بافِل جذلاً. ضحك العجوز ولم يجِبْ بكلمة. شربا العرق وتناولا الطعام وكانت العتمة قد عمّت في الأجواء، ثمّ بانت النجوم في كبد السماء، تطايرت الشهب وخبت النار المشتعلة بالقرب منهما.

التفت العجوز يوردو نحو بافِل وقال: «والآن أريدك أن تقصّ علىّ

t.me/qurssan

حكايتك مع ماريا. لكن هذه المرّة أريدك أن تذكر كلّ التفاصيل، كلّ شيء كما لم تفعلْ من قبل».

أدرك بافِل رغبة الراعي بقضاء أمسية فريدة، وقرّر أن يمنحه أجمل الساعات في هذه البادية، وطفق يقصّ عليه حكايته مع الراهبة ماريا.

قد يعود السبب في مزاج العجوز الصافي الرائق، للبدر الذي ارتفع عالياً في الأفق، فأظهر بافِل إمكانياته الكامنة في فنّ القصّ كما لم يفعل يوماً ما من قبل. وجهها الأبيض وعيناها الخضراوان بانت ثانية في أنوار تلّ الشيطان المرعبة لتمضي خلف حبيبها. تمكّن كذلك من تذكّر تفاصيل لم تخطر بباله في الأحداث التي صاحبت علاقته مع تلك المرأة، تحدّث عن مشاهد وصفها بجماليّة فنانٍ محترف. لم يقاطع العجوز يوردو هذه المرّة صديقه الشاب نهائياً وبقي جالساً في مكانه المفضّل يدخّن تبغ غليونه.

عندما ارتفع البدر واقترب منهما أكثر وأضاء وجهيهما، لاحظ بافِل كيف يتابع العجوز كلّ كلمة تخرج من فمه، شاهده يرفع حاجبيه باستغراب، ثمّ يهزّ رأسه مبتسماً ومعلناً عن حبّه ورضاه. وحين أخذ يصف مشهد هربهما من الدير، وكيف أنّ ماريا أغلقت الباب خلفها بقوّة ومدّت له يديها، مدّ الراعي العجوز أيضاً يديه إلى الأمام وغمر النور وجهه كأنّه قد أمسك في تلك اللحظة يدي ماريا ولامس أصابع الراهبة الناعمة الطويلة.

تحدّث بافِل طويلاً، وحين أنهى حكاية ماريا كانت النار بجانبهما قد انطفأت بالكامل.

«تصبح على خير يا جدّي!».

«تصبح على خير يا بني!»، قال العجوز ولم يحرّك ساكناً.

في الصباح شاهد بافِل الراعي العجوز يمضي مع القطيع كعادته خلف الينبوع. النهار دافئ والأجواء لطيفة، وكان على بافِل أن ينجز الكثير من الأعمال الشاقّة ومختلف المهام الجيولوجية. ذهب إلى الموقع وانشغل بمعاينة الصخور طوال الصباح، أنجز

t.me/qurssan

قياس المقاطع وسار بين الأخاديد ولم يترك صغيرة إلا ودوّنها.

عند الظهر وجد نفسه على التلّة المطلّة على شجرة البلّوط وكوخ العجوز. أصيب بالدهشة حين شاهد جمعاً من الناس يحيطون بالشجرة. ظنّ في بداية الأمر أنّ القاعدة قد أرسلت بعض المساعدين كما وعدوه وسارع الخطا لاستقبالهم.

ما إن بلغ منتصف الطريق حتى أدرك أنّ الجمع مكوّن من شخصين فقط، وعلى أحد أغصان شجرة البلّوط التي يعرفها حدّ الوجع يتدلّى شيءٌ ما. تملّكه هاجسٌ سيّئ، أدرك أنّ أمراً مروّعاً قد حدث. ركض بافِل وحين بلغ المكان كانوا قد فكّوا جثّة العجوز عن الشجرة.

شنق العجوز يوردو نفسه بحزام.

أمّا الرجلان فهما عمدة القرية والطبيب اللذان انطلقا ما إن أبلغهما ليوبتشو برسالة العجوز.

فكّوا جثة العجوز ووضعوها فوق الحصير الملوّن، وللتوّ شرّح الطبيب الجثمان، وكان على بافِل مساعدته. وقف إلى جانب الطبيب ممتقع الوجه ليشاهد ما بقي من جسد العجوز يوردو.

أعرب الطبيب عن دهشته حين تيقّن من صحّة الراعي وسلامة أعضائه الداخلية، وأفاد بعدم وجود أيّ أثر لتصلّب الشرايين.

«كان بإمكان هذا الرجل أن يعيش سنوات طويلة أخرى»، قال الطبيب.

لفّوا جسد العجوز بالحصير وانطلقوا جميعاً مغادرين المكان.

ثمّ حضر الفتى وقاد قطيع الماعز كلّه في وجهة مجهولة. سُمع صوت ثغاء الماعز وأصوات الأجراس المعلّقة في أعناقها التي اختفت نهائياً بين التلال البعيدة.

خيّم صمتٌ قاتلٌ فوق تلّ الشيطان، ولم يعدْ بإمكان بافِل أن يستمع لأصوات ثغاء الماعز أو لأيّ صوتٍ بشريّ ولا حتى لصوتِ

t.me/qurssan

الشيطان نفسه. انتقل البدرُ ثانية عالياً في السماء، والتمعت الحجارة خلف الأفق كأنّها عظام متناثرة في حرب قديمة طاحنة.

استفاق بافِل أخيراً واستعاد وعيه، جمع حاجياته في حقيبة صغيرة وغادر الصحراء على الفور.

انتهت

t.me/qurssan

غيورغي ماركوف (1929-1978)

وُلد غيورغي ماركوف عام 1929، في صوفيا عاصمة مملكة بلغاريا قبل إعلانها جمهورية بلغاريا الاشتراكية مع بدء المرحلة الاشتراكية في البلاد، إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية. أنهى دراسة الهندسة عام 1950. عمل أستاذاً معيداً في العديد من جامعات جمهورية بلغاريا الاشتراكية. تقاعد لأسباب صحية عام 1958. كتب في العديد من المجالات الأدبية، وبضمن ذلك: الروايةُ والمسرحية والقصّة القصيرة. عمل في مجال الصحافة ويعدّ أحد أهم كتّاب المقال والتحليل السياسي والفلسفي. هاجر إلى إيطاليا عام 1969، ثمّ اختار لندن مقراً لإقامته حيث عمل في القسم البلغاري لراديو BBC، وعمل لصالح راديو «أوروبا الحرّة» الذي كان يبثّ برامجه من ميونخ.

أصدرت السلطة القضائية في بلغاريا ضدّه حكماً بالسجن الغيابي لمدّة ستّ سنوات عام 1978، بسبب الأعمال الصحفية الموجّهة ضدّ السلطة والحزب الشيوعي الحاكم من المهجر. اغتيل في لندن عام 1978 باحتراف غير مسبوق: بالقرب من مترو الأنفاق، وخزه عميل في ربلة ساقه برأس مظلّة يحتوي على سمّ بطيء أودى بحياته خلال أيام معدودة.

من أبرز أعماله: رواية «استطلاع للآراء» - 1961، المجموعة القصصية «ما بين الليل والنهار» - 1961، روايات قصيرة «لوحة شخصية لتوءمي» – 1966، رواية «نساء وارسو» – 1968، التي تعدّ أهم أعماله الأدبية. مسرحية «السيدة وتاجر الأجبان» – 1963، كما صدرت له مجموعة من الأعمال المسرحية بعد وفاته في لندن.

وصدرت له العديد من الأعمال الصحفية في كتب مستقلة ضمّت أهم المقالات والريبورتاجات التي أعدّها خلال فترة إقامته خارج حدود جمهورية بلغاريا الاشتراكية.

خيري حمدان:

t.me/qurssan

مترجم وكاتب فلسطيني، حاز شهادة الماجستير في الهندسة قبل أن يتفرّغ للعمل في مجال الصحافة والترجمة والكتابة. يعيش حالياً في العاصمة البلغارية صوفيا.

صدر له العديد من الروايات والأعمال الشعرية باللغة البلغارية، كما صدرت له عدة روايات باللغة العربية، من أبرزها: «انعتاق»، و«حدائق البندق». ترجم عن اللغة البلغارية: مختارات من الشعر البلغاري المعاصر، ومختارات من القصص البلغارية، ورواية «هدايا شهرزاد السبعة» للكاتب «إميل غيورغييف».

صدرت بترجمته عن داري «سرد» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: رواية «أنشودة لغورغ هينيك» للكاتب «فِكتور پاسكوڤ»، ورواية «نساء وارسو» للكاتب «غيورغي ماركوف».

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

t.me/qurssan